الحب في زمن الحرب

اسم الكتاب: **الحب في زمن الحرب**

اسم المؤلف: **شريف شوقي**

تدقيق لغوي: **مكرم تادرس – هاجر جابر**

تصميم الغلاف: **Sandoby**

تنسيق داخلي: **مينا تادرس**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٣٦٩٣**

الترقيم الدولي : **٩٧٨٩٧٧٨٤٤٢١٣٧**

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

E-mail: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

سلسلة الروايات الرومانسية ورود

الحب في زمن الحرب

شريف شوقي

إبهار
للنشر و التوزيع

إهــداء

إلى شهداء الحرية والوطن، وأصحاب المشاعر الجميلة والنبيلة.

أحيانًا تنبت الزهور من بين الصخور، وتتخلل المشاعر الدافئة صقيع حياتنا، فتمنحها ما تفقده من دفء.. وحتى في خضم المعارك والحروب، يمكن أن تحترق مدن ويقتل ملايين من البشر، لكن لا يمكن هزيمة مشاعرنا الإنسانية، وسيبقى دائمًا هناك مكانًا للحب، حتى في ظل أهوال الحرب.

شريف شوقي

الفصل الأول

أخذت سوزان تروح وتغدو في أرجاء شقتها الصغيرة بمدينة (نيو جيرسي)، وقد ارتسمت على وجهها ملامح من يعتريه تردد وصراع داخلي، وسرعان ما توقفت فجأة، لتتحول إلى جهاز الحاسوب، حيث جلست أمامه وقد لامست أناملها أزراره قبل أن تبدأ في الكتابة.

عزيزي مستر بوش رئيس (الولايات المتحدة الأمريكية)، أنا سوزان سميث، مواطنة أمريكية، كنت أعمل مراسلة حربية ضمن مجموعة المراسلين العسكريين، الذين ألحقوا بالفرقة الثالثة من مشاة البحرية الأمريكية (المارينز)، التي أُرسلت إلى العراق في الرابع عشر من مايو سنة ٢٠٠٤، ولا أظن أنني بحاجة لتقديم المزيد عن نفسي، فلا بد أنك تعرفني كما يعرفني الملايين من

الأمريكيين بعد أن تناولت وسائل الإعلام الأمريكية اسمي وقصتي كثيراً، خاصة في الآونة الأخيرة، وبعد تحريري من الأسر لدى جماعة من أفراد المقاومة العراقية بواسطة الجنود الأمريكيين، وبعد أن ظللت في الأسر عدة أيام انقطعت خلالها صلتي بالعالم الخارجي تمامًا، وقد صورت عملية تحريري من الأسر على طريقة أفلامنا الهوليودية، وكأنها إحدى المعارك الحربية الكبرى، وأُحيطت بدعاية كبيرة ومصطنعة من النوع الذي نبرع في تقديمه للعالم حينما نرغب في تصوير أكاذيبنا لتبدو في صورة حقيقية، وخيالاتنا وكأنها جزء من الواقع.

لقد حوصرت منذ عودتي إلى الولايات المتحدة بالصحافيين والإعلاميين؛ للتحدث عن قصة اختطافي بالعراق وعملية إنقاذي من الأسر، وتعرضت لِما يشبه المطاردة من الأجهزة الأمنية، (الإف بي أي وسي أي إيه) وبعض رجال السياسة من الحزبين الجمهوري والديمقراطي للحصول على تقرير حول عملية الخطف التي تعرضت لها، والحصول على المعلومات المتعلقة بالخاطفين وهويتهم ومعاملتهم لي أثناء الأسر، وبالطبع وفقًا للأغراض السياسية وبالصورة التي يرغبها رجال السياسة والإخراج الذي يجيده مسئولو الأمن، لكني رفضت كل الضغوط

التي مورست عليَّ لتحقيق أهدافهم، وما زلت أرفضها حتى هذه اللحظة، لأني غير مستعدة أن أكون جزءاً من التجميل والدعاية المُلفَّقة لحربنا الملعونة في العراق، أو جزءاً من الحملة الانتخابية للحزب الجمهوري ولك أنتَ شخصيًا، فأنت الذي اخترت قرار الحرب الذي لم ينجم عنه سوى الترويع والخراب والدمار في هذا البلد، لتحل عليه لعنتنا.

أما الآن، فأنا مستعدة للتحدث عن تلك التجربة التي عشتها في العراق وتركت بصماتها على نفسي ومشاعري.

أرويها، لكن ليس بالطريقة التي تريدها وتريدها معك مؤسسة الرئاسة الأمريكية والبنتاجون وأركان الحزب الجمهوري، ولكن طبقًا للواقع الذي عشته بالفعل.

أجل، سأرويها ليعرفها الجميع، وفي مقدمتهم الشعب الأمريكي، وبقية شعوب العالم.

توقفت برهة وقد شردت بنظراتها وكأنها تستعيد في ذاكرتها تلك اللحظات الأولى لبداية التجربة التي عايشتها، ثم لم تلبث أن عاودت الكتابة.

عندما سافرت إلى العراق بعد ترشيحي للعمل كمراسلة حربية ضمن أفراد الفرقة الرابعة لمشاة البحرية الأمريكية، كنت قد سمعت وقرأت وشاهدت على شاشات التلفاز الكثير عما يتعلق بأسباب الحرب التي تقرر أن نخوضها هناك، ورأيت الرئيس بوش ونائبه وهما يتحدثان لوسائل الإعلام الأمريكية عن الهدف المنشود من وراء تلك الحرب ومبرراتها.

سمعت عن أسلحة الدمار الشامل التي تم إخفاؤها في العراق، والخطر الذي يمثله نظام صدام حسين على المنطقة والعالم بأسره. وأفاض الرجلان بإسهاب عن إرساء قواعد الحياة الديمقراطية في العراق بعد الغزو الأمريكي، وما سوف يتبعه من انتشار عدواها في بقية أرجاء المنطقة المحيطة به، والتي لم أكن أعرف عنها سوى القليل.

وكان البعض من تلك التبريرات التي تتردد على لسان الرئيس ومساعديه لتبرير الحرب على العراق تبدو مقنعة أحيانًا ومُبالَغ فيها أحيانًا أخرى، وربما تنطوي على الكثير من الدعاية الإعلامية التي عهدتها لتسويق الحروب، وإظهارها على طريقة الأفلام الأمريكية بالمظهر النبيل ومنطق الأخيار الذين يذهبون

لمحاربة الأشرار، وإرساء الأمن والسلام والرفاهية في تلك البقعة من العالم، لكن الحقائق لم تكن خفية عن الكثيرين من المعارضين لسياسة الحروب والغزوات من أفراد الشعب الأمريكي.

كانت الآراء المتناقضة بشأن تلك الحرب قد بدأت تُحدث أثرها داخل المجتمع الأمريكي والمظاهرات المناهضة لها تملأ أرجاء أمريكا والعالم، وتحدث البعض عن المجازر الوحشية التي ترتكبها قواتنا هناك، وبدأ الحديث يتردد حول الهدف الحقيقي من وراء الغزو الأمريكي للعراق، وأن الهدف من ورائها هو حماية إسرائيل، والاستيلاء على منابع النفط، وتصفية حسابات قديمة مع النظام الحاكم هناك.

وأسهبت بعض أصوات المعارضة في الحديث عن أن ما يحدث في العراق ما هو إلا احتلال بغيض، يشوه صورة العالم الحر، الذي طالما روَّجت أمريكا لقيادته، وأن العدوان السافر على العراق يخالف كل الأعراف الإنسانية، ولم ينجم عنه سوى جلب الشقاء والخراب للشعب العراقي، وتحويل العراق إلى أتون ملتهب يحترق فيه كل أبناؤه.

ولا أنكر أنني سمعت كل تلك الآراء المؤيدة والمعارضة بعقل محايد في البداية، وصممت ألا أتخلى عن حيادي هذا منذ اللحظة الأولى التي حملتني فيها الطائرة الحربية لألتحق بالفرقة الرابعة لمشاة البحرية، حيث قررت أن أتعامل مع المهمة التي كُلفت بها كمراسلة عسكرية بمهنية واحترافية بحتة، بعيداً عن أي تأثير عاطفي، خاصة أنني كنت حديثة العهد بهذا العمل الذي كُلفت به.

كانت المرة الأولى التي أسافر فيها للالتحاق بإحدى الفرق العسكرية التي تشارك في معارك حقيقية، حيث لم تكن لي خبرة سابقة في هذا الشأن، لكن كان لديَّ طموح كبير وآمال واسعة في نجاحي في أداء مهمتي على النحو الأمثل، وأن يكون نجاحي في هذا العمل نقطة انطلاق بالنسبة لي، لتحقيق نجاحات أكبر بالمجال الإعلامي المدني فيما بعد، فمنذ تخرجي من معهد الصحافة وأنا أرى نفسي مهيأة للنجاح بهذا المجال، وتحْدُوني آمال كبيرة في عالم الصحافة الأمريكية، المهنة التي أحببتها منذ الصغر، بقدر ما أحببت خالي الذي كان واحداً من ألمع نجومها قبل وفاته، حيث ظلت صورة الصحفية اللامعة تداعب خيالي، وترسم لي خطواتي، رغم

علمي بأنه حلم صعب المراس وتتخلله مشقة كبيرة، وأن الطريق لن يكون ممهداً بأي حال من الأحوال لاختراق عالم الصحافة الأمريكية، والوصول إلى النجاح المنشود فيه وسط كل الحيتان الضخمة التي تسبح في مياهه، لكني كنت راسخة الإرادة، وأعرف جيداً أن طريق الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة، وكانت هذه هي الخطوة الأولى التي أخطوها في خضم تلك الحرب التي أُرسلت لعمل تحقيقات صحافية عن مساراتها في ذلك البلد العربي الواقع في أقصى الشرق، والذي يبعد مئات الأميال عن أمريكا.

لكن البداية جاءت مخيبة للآمال، فقد توالت الأيام منذ مجيئي إلى العراق، وانضمامي إلى الفرقة الرابعة دون عمل شيء، ودون أن أُكلَّف بعمل حقيقي ذي قيمة.

لا شيء سوى الاستماع لبعض الروايات التي يرويها الجنود عن بعض المعارك القصيرة والأعمال العسكرية البسيطة هنا أو هناك، وأحيانًا كان يتحدث بعضهم عن صعوبة تلك المعارك التي يخوضونها ضد خصم يعتمد على تكتيك وأسلوب حرب العصابات وحرارة الجو القاسية.

ومع مرور الوقت وتوالي المعارك وجرأة الجنود في التحدث عما يواجهونه على الأرض، بدا لي واضحًا أن الحرب قد بدأت تترك آثارها النفسية والإنسانية القاسية على الكثير من جنودنا، وقد رأيت بنفسي حالات الاكتئاب والاضطرابات النفسية تنتشر بين العديد من الجنود الذين رافقتهم، وإن كان كل ما سجلته عن تلك الحالات والمعارك التي سمعتها من ضباطنا وجنودنا لم يكن ليحقق البداية القوية التي تمنيتها، لأصنع لي اسمًا في عالم الصحافة.

كنت ألح كل يوم على قائد الفرقة؛ ليجعلني أشارك في بعض العمليات العسكرية وأرافق الجنود الأمريكيين في إحدى المهام التي يُكلَّفون بها، لتصوير مشاهد حقيقية عن تلك المعارك، خاصة أنني حصلت على دورة قصيرة في التدريبات العسكرية، والتعامل مع أنواع مختلفة من الأسلحة المتطورة.

وبدا لي أن الخطوة الحقيقية التي أترقبها على طريق الألف ميل قد لاحت لي، حينما استدعاني الكولونيل جيمس رالف ليخبرني بأنه قد تقرر أن أرافق إحدى الدوريات العسكرية

الأمريكية المكلفة بالذهاب إلى مدينة الفلوجة في الساعات الأولى من الفجر.

وقد سألني بنبرة يغلب عليها التردد قائلاً:

- كنتِ تلحين في مرافقة بعض جنودنا في بعض المهام العسكرية، فهل ما زلتِ على إصرارك بهذا الشأن؟ أم تفضلين الانتظار لبعض الوقت؟

قلت له بحماس يغلب عليه الانفعال:

- هذا ما أترقبه منذ مجيئي إلى هنا.

- حسنًا، استعدي لمرافقة إحدى دورياتنا الاستطلاعية فجر اليوم في مدينة (الفلوجة).

- هل هي عملية استطلاع عادية؟

ابتسم قائلاً:

- بل ربما يتطور الأمر للقيام بعملية هجومية، لتصفية أحد الأوكار التي يتحصن بها مجموعة من الإرهابيين في (الفلوجة).

أطلقت صفيراً عاليًا وأنا أبتسم قائلةً:

- إذن، فهي عملية عسكرية حقيقية تستحق أن نرتب لتصويرها وتسجيل وقائعها بطريقة مباشرة.

نظر إليَّ بدهشة قائلاً:

- ألا تشعرين بشيء من الخوف من عملية شديدة الخطر كهذه؟ أنتِ لا تعرفين مدى خطورة هؤلاء الأشخاص الذين نواجههم، فهم لا يتورعون عن عمل أي شيء يمكن أن تتخيلينه في قتالهم معنا.

قلت دون أن يفارقني حماسي:

- رغبتي في أداء عملي على النحو الأمثل أقوى من شعوري بالخوف، أنا متشوقة لتحقيق نصر صحافي كبير، ونقل الوقائع الحقيقية للمعارك الدائرة التي يخوضها جنودنا من داخل الميدان هنا إلى الشعب الأمريكي.

لكنه أشار لي بإصبعه قائلاً:

- عليكِ أن تعرفي أن ليس كل ما ترغبين في نقله عما يدور هنا سيُسمح لكِ بنقله.

قلت له معترضة:

- هذا يتعارض مع حرية الإعلام والمعرفة، وهي من الحقوق الأساسية للأمريكيين.

- يبدو أنك نسيتِ ما هي طبيعة عملك هنا، أنتِ لستِ مجرد صحافية عادية أو مذيعة تابعة لإحدى المحطات الأمريكية، فأنتِ هنا مراسلة حربية، صحيح أنك تقومين بعمل صحافي من الناحية المهنية، لكنك تعملين أيضاً لحساب الجيش الأمريكي، ونحن هنا في حالة حرب، والحرب تفرض قيوداً استثنائية، تتعارض مع تلك الحريات التي تتحدثين عنها، فأعمالك تُعرَض في النهاية وتخضع للرقابة العسكرية، وهي التي تحدد ما يمكن نشره وما لا يُسمح بنشره في تلك الأحوال.

* * * *

حملتني السيارة وبرفقتي فريق التصوير، يصحبنا حوالي ثمانون جندياً في طريقنا إلى الموقع المراد مهاجمته، وكنت قد تزودت بسلاحي الخاص وأنا أرافقهم في تلك المهمة، مسدس عيار ٣٨ مللي وكمية من الطلقات، بالإضافة إلى خنجر.

كان هذا من باب الاحتياط فقط إذا ما تعرضت للخطر في خضم تلك المعركة القادمة بالرغم من تولي أربعة جنود مدججين بالسلاح مهمة تأميني ومعي فريق التصوير خلال القتال والحرص على إبعادنا عن مصدر الخطر المباشر.

وجدتني أجلس وسط هؤلاء الجنود المسلحين، وقد انتابتني مشاعر شتى، ما بين الفضول الصحافي والحماس تجاه أول مهمة صحافية أقوم بها، والخوف من المجهول الذي ينتظرنا.

ولم أكن وحدي في هذا، فقد بدت مظاهر الرهبة والترقب على وجوه زملائي من المصورين والجنود، إذ رأيت ملامح الوجوم والترقب واضحة على وجوههم، حتى بالنسبة لمن حاول منهم التظاهر بالمرح واللامبالاة، فقد كانوا مدركين أكثر من غيرهم صعوبة المهمة الذين هم مقبلون عليها، وأنهم يحملون رؤوسهم على كفوفهم في مواجهة عدو مجهول.

كانت البداية هي اختراق منطقة شبه جبلية محصنة وتدميرها تماماً، ثم فرض سيطرة تامة عليها، وقد أخذت السيارة التي أركبها تتأرجح بنا وهي تميل يميناً ويساراً فوق أرض غير متساوية، حتى شعرت بعظامي وهي تكاد تتفكك من بعضها على إثر الاهتزازات

العنيفة للسيارة، وما لبثت أن توقفت السيارات التي تحملنا حتى أخبرنا قائد الدورية أننا سنواصل التقدم سيراً على الأقدام.

ما إن غادرت السيارة حتى استرعى انتباهي ظهور مجموعة أخرى يرتدون الثياب العسكرية، وإن بدت مختلفة عن تلك التي يرتديها الجنود الذين يرافقوننا.

كانوا حوالي خمسين شخصاً تقريباً، وقد صافحهم قائد الدورية قبل أن ينضموا إلينا بأسلحتهم وعتادهم ليتقدموا جنود الدورية.

و قد علمت فيما بعد أن هؤلاء يتبعون إحدى الشركات الأمنية المتخصصة التي توافدت على العراق بمعرفة وتنسيق مع القوات الأمريكية، وتضم أعداداً كبيرة من المرتزقة، تم جلبهم من مناطق مختلفة من العالم؛ لتقديم المساعدة لقواتنا في مواجهة من يطلقون عليهم صفة الإرهابيين، وهم من أصحاب الرواتب الضخمة والضمائر الخاوية والقلوب القاسية، والمستعدين دائماً للقيام بالعمليات القذرة المخالفة لكل الأعراف العسكرية والمبادئ الإنسانية، وغير الخاضعة لاتفاقيات جنيف.

* * * *

الفصل الثاني

كل المعلومات كانت تشير إلى تحصن مجموعة من الإرهابيين داخل منطقة سكنية، سبق تعرضها للقصف والتدمير، بواسطة الطائرات وقذائف المدفعية، حيث تقدم جنودنا والمسلحون المتحالفون معهم وسط الخرائب والمساكن التي لحق بها الدمار بخطوات حذرة ومشاعر متوترة، مشهرين أسلحتهم وهم يتلفتون يميناً ويساراً وذات اليمين والشمال، وقد أخذت أتتبعهم ومعي المصورون، تشملنا الرهبة والإحساس بالخطر المجهول الذي يكمن في انتظارنا.

وظللنا ننتقل من بقعة إلى أخرى في مجموعات متعددة الأفراد، من منزل إلى آخر ومن تلال متهدمة إلى غيرها، دون أن

يبدو ما يدل على وجود أي أثر للأعداء في هذا المكان المقفر، وقد مر علينا الوقت ثقيلاً.

لم يكن حولنا سوى سكون مطبق يخيم على كل ما حولنا، لم يكن يوجد سوى أحذيتنا وهي تطأ الأرض، وقفزات القوارض التي سكنتها وقد أزعجتها حركتنا في المكان، فسارعت بالهرب.

وفجأة شق السكون صوت انفجار قوي، تلاه صراخ وصيحات فزع، وسرعان ما تبين لنا أن ثلاثة من أفراد القوة التي تصاحبنا قد تعر ضوا لعبوات نا سفة تم زرعها في المكان، ليقضي أحدهم نحبه في الحال، في حين أُصيب الآخران بإصابات بالغة.

كانت المرة الأولى التي تقع فيها عيناي على مثل هذا المشهد المروع، وشعرت بالأرض تميد تحت قدميَّ وقد أصابني الفزع لرؤية تلك الأشلاء وهي تتناثر على مقربة مني، حيث ارتجف جسدي بعنف، وأدركت أنني على وشك أن أفقد الوعي لهول ما رأيته، لكني تذكرت الهدف الذي جئت من أجله، وأنني ما زلت في البداية، ولا بد أن القادم لن يقل عنفًا، فحاولت أن أبدو متماسكة، وأنه لا بد أن أسارع بإخفاء فزعي وضعف صلابتي عن كل من حولي.

وما لبث القائد أن صـــرخ مطالبـًا جنوده بالتوقف عن متابعة التقـدم والتقهقر إلى الخلف بحـذر، كمـا طـالبهم بـالنظر تحـت أقدامهم أثناء تراجعهم، معتمدين على نظارات الرؤية الليلية، مع سرعة نقل الجنديين المصابين إلى إحدى السيارات العسكرية.

وكذلك فعلت مثلهم، فقمت بتثبيت النظارة فوق عينيَّ وأنا أتراجع إلى الوراء وأراقب الأرض تحت قدميَّ بخطوات حذرة، بينما عاد قائد القوة ليتصل بقيادته قائلاً بانفعال:

- الأرض هنا ملغمة، أريد إرســـال فريق من خبراء المفرقعات على وجه السرعة؛ لتأمين تقدمنا قبل تنفيذ العملية.

وأغلق جهاز اللاسلكي، مطالبـًا الجميع بالثبات في أماكنهم.

ظللنا رابضين في أماكننا، في انتظار وصول خبراء المفرقعات، لكن الوقت لم يســعنا لمزيد من الانتظار، إذ ســرعان ما انشــقت الأرض فجأة عن عشرات من الأشباح الملثمين، الذين أحاطوا بنا من كل جانب، متخذين مواقع متميزة لأنفســهم، وقبل أن يتغلب الجنود على أثر المفاجأة، انهمر علينا وابل من الطلقات والقذائف

الصاروخية، ليتحول المكان المظلم الذي كان يغمره السكون منذ لحظات إلى جحيم مستعر يدوي فيه صوت الرصاص والصراخ.

وأتلفت حولي لأرى عشـرات من جنودنا وحلفائهم وهم يتساقطون تباعـًا، ما بين صرعى وجرحى، وقد اختلطت صرخات الهلع والألم بصوت القنابل والانفجارات والطلقات النارية.

حاولت السـيطرة على انفعالاتي والتشـبث بصـلابة زائفة، لكني لم أفلح في ذلك، إذ سرعان ما انهارت مقاومتي وقدرتي على التماسك، لهول ما رأيت، فسقطت على الأرض مغشيـًا عليَّ، وقد فقدت إحساسي بكل ما يدور حولي.

* * * *

لا أدري كم مضى من الوقت قبل أن أسترد وعيي من جديد، لكني شـعرت بألم شـديد في رأسـي وذراعي وأنا أسـتعيد رشـدي مجدداً، ورغم هذا الإحسـاس بالألم إلا أنه كان أهون بكثير مما شعرت به من خوف وارتياع، وقد تبين لي أنني كنت مقيدة اليدين والقدمين في مكان مظلم وموحش غير واضح المعالم.

حاولت أن أستجمع قوتي للتخلص من قيدي، لكن كل محاولاتي باءت بالفشل، فأخذت أصرخ بصوت عالٍ دون أن يستجيب أحد لصراخي، وشعرت بلحظات طويلة مرت عليَّ كالدهر، قبل أن أنتبه لبقعة كبيرة من الضوء رأيتها تفترش الأرض أمامي، وسرعان ما تبين لي أن مصدرها هو السقف العلوي للمكان الذي سُجنت فيه، مما يعني أنني سجينة داخل قبو أسفل الأرض.

وعندما أدرت جسدي استطعت أن أرى أيضًا من خلال انعكاس الضوء سلمًا حجريًا يمتد إلى المكان الذي أجلس فيه.

ظللت أحدق في درجات السلم المتهالكة، وقد توقفت صرخاتي، ليحل محلها ما يشبه التبلد الحسي، وشعرت بعدم القدرة على التفكير والاستسلام لمصير مجهول ينتظرني.

وفجأة سمعت صوت أقدام تهبط الدرج بتؤدة، ثم رأيت تلك الأقدام وهي تقترب في اتجاهي، قبل أن أجد أمامي شخصين ملثمين ومدججين بالسلاح، حيث قال لي أحدهما بخشونة بإنجليزية ركيكة:

- لا نريد أن نسمع صراخك مجدداً، صراخك لن يفيد بشيء غير الضيق وإثارة أعصاب البعض منا، مما يجعله يعجل بقتلك.

سألته بصوت مرتعش:

- أين أنا؟

قال وقد ازداد صوته خشونة:

- هذا ليس من شـأنك، ثم إننا فقط الذين نطرح الأسـئلة هنا، وعليكِ الإجابة على كل ما نطرحه من أسئلة.

أزادت رؤيتي لهذين الملثمين والخشـونة التي يتحدث بها أحدهما من مخاوفي وتسـاؤلاتي عن المصـير الذي ينتظرني في هذا المكان الموحش، وتحت رحمة أشخاص كهؤلاء.

لكني حاولت التغلب على مخاوفي، وأنا أعود لأسأله قائلة:

- ماذا تريدون مني؟

- ألم أقل لك أن تتوقفي عن طرح الأسـئلة؟! نريدك أن تبقي سـاكنة في مكانك دون حركة أو صـوت، حتى نحسـم الأمر بالنسبة لك.

- كيف تطالبني بالبقاء ساكنة وأنا على هذه الحالة؟!

قال الرجل منفعلاً وهو يصوب سلاحه إليها:

- إذن، سأجعلك تغلقين فمك وتسكتين إلى الأبد.

لكن زميله جذب منه سلاحه قائلاً:

- لا داعٍ لهذه العصبية، دعها تسأل عما تريد.

كان صوته أكثر هدوءاً، وأقل انفعالاً.

سألته قائلة:

- أين المصوران اللذان كانا يرافقانني؟

قال الرجل الأول صاحب الصوت الخشن:

- فرّا مع غيرهما كالفئران المذعورة قبل أن تطولهما نيران أسلحتنا.

أصابني الرعب وقلت وأنا أزدرد لعابي:

- وهل تنوون قتلي؟

قال وهو يستعيد سلاحه ليضرب عليه براحة يده في قوة:

- ربما.

قلت وأنا أحاول إخفاء ما يعتمل بداخلي من خوف:

- لكني لست جندية، أنا مجرد مراسلة حربية، مهمتي تسجيل ما يدور في ميادين المعارك ولا شـــأن لي بأعمال القتال، فلم آتِ إلى هنا لمقاتلتكم.

قال لها بغلظة:

- لكنك أمريكية، وجئتِ إلى هنا بصـــحبة الجنود الأمريكيين وكلابهم من المأجورين المرتزقة، لغزو بلادنا واحتلالها ونشر الخراب والدمار في ربوعها، لذا عليكِ أن تلقي مصيرهم.

أزاح زميله اللثام عن وجهه وهو يقترب مني واضـــعًا إحدى قدميه فوق حجر كبير مرتكزاً بســـاعده على ركبته، وهو يحدق في وجهي قائلاً:

- ترتـدين الثيـاب العســكريـة، وتحملين الســـلاح مثل الجنود الأمريكيين وتشـــاركينهم اقتحامهم لمواقعنا، ثم تكلميننا عن أنه لا شأن لكِ بهذا الغزو!

استطعت من خلال بصيص الضوء الذي يتسلل إلى المكان وبعد اقترابه مني أن أتبينه بطريقة أكثر وضوحًا.

كان شـــابًا فارع القوام، ذا بنيان قوي، ذا شـــارب تم تهذيبه بعناية، وعينين لهما بريق نافذ وقد لوحت الشمس وجهه وصدره، فأضفت عليهما لونـًا برونزيـًا محببـًا.

لقد بدا لها من ذلك النوع الذي يستأثر برجولة فياضة ووسامة لا تخطئها أعين النساء.

ردت عليه قائلة:

- ما دمت أعمل مراســلة عســكرية فمن الطبيعي أن أرتدي الزي العســكري مـا دمـت أتحرك مع الجيش الأمريكي في ميـادين القتال، أما السـلاح الذي أحمله فهو من أجل الدفاع عن نفسـي في حالة تعرضي لأيّة مخاطر أثناء أدائي لعملي.

قال لها بنبرة هادئة:

- هذا ما وضـعناه في الاعتبار حينما قررنا أسـرك، أن تكوني مدنية ملحقة بالجيش الأمريكي، خاصةً بعد أن اطلعنا على أوراقك.

قلت له بعصبية:

- أريد أن أعرف ما هو مصيري الآن؟

قال وهو يرمقني بنظراته النافذة:

- هذا ما سوف تقرره قيادتك.

- ماذا تعني؟

- أنتِ الآن أسيرتنا وقد أبلغناهم بذلك، وهم لديهم ستون أسيراً من رجالنا، اعتقلهم الأمريكيون وأودعوهم في السجون، فإن أرادوا استعادتك فعليهم بدورهم أن يعيدوا لنا أسرانا.

- وإذا لم يستجيبوا لمطلبكم؟

قال دون أن يتخلى عن نبرته الهادئة:

- ستموتين.

قلت له بانفعال:

- ماذا؟!

- لقد أمهلناهم ثلاثة أيام للرد، تبدأ من الغد.

قال زميله بغلظة:

- ها أنتِ قد عرفتِ الغرض من وجودك هنا، إما أن يتحرر رجالنا من الأسر أو نعيدك لهم جثة هامدة.

قلت لهما صارخة:

- لكن هذه همجية ووحشية!، فأنا لست جندية ولم أشارك في أي قتال، ما تفعلونه ليس له علاقة بكل القواعد المتعارف عليها عسكريًا، فهذه عملية اختطاف لصحفية مدنية، تجعلونها رهينة وتهددون بقتلها، هذا يعد عملاً إجراميًا!

اندفع الشخص الملثم نحوي وقد سقط اللثام عن وجهه، كاشفًا عن وجه محتقن بالغضب وعينين تقدحان شرراً، وقد لوح لي بقبضته قائلاً بانفعال:

- أتتحدثين عن الهمجية والوحشية أيتها الأمريكية اللعينة! وبماذا تسمين ما يفعله رفاقك بنا وبالعراق؟ ماذا تقولين عن البيوت التي هُدمت فوق رؤوس أصحابها؟ ماذا عن الأطفال والشيوخ والنساء الذين قُتلوا بلا ذنب ارتكبوه؟

- إياكِ أن تدّعي أنك لا تعرفين شـيئًا عما فعله ويفعله بنا رفاقك الغزاة والمحتلون، لقد حوّلوا بلاد نا إلى أتون من اللهب، ما بين يوم وليلة، أولئك الذين يدّعون أنهم في طليعة الشـعوب الحرة ويفترضـون أنهم قمة المدنية والتحضر، أنت تعرفين بلا شـك ما يفعلونه هنا بأرضـنا وشـعبنا، لكنك لا ترين في ذلك ما ينم عن الوحشـية والهمجية التي ترينا عليها، فقط حينما ندافع عن أنفسنا ونرد لكم جزءاً مما فعلتموه وتفعلونه بنا نكون نحن الهمجيون والمتوحشـون بالنسـبة لكم! تنظرون إلينا كجنس أدنى منكم، وترون أن دماءنا أرخص بكثير من دمائكم.

واستطرد قائلاً:

- من الأفضـل لكِ أن تغلقي فمك ولا تكلميننا عن الهمجية، فذلك شـيء جلبتموه معكم إلى أراضـينا منذ أن وطئتها أقدامكم.

كانت راحته ممدودة بالقرب من وجهي وهو يلوح بها يمينًا وشـمالاً، وشـعرت كما لو كان على وشـك أن يصـفعني، مما جعلني أشـعر برعدة في جسـدي، فانكمشـت في ثيابي وأنا أرقب

ملامح وجهه المحتقن والشرر الذي يتطاير من عينيه، لكن الشاب الآخر اقترب منه ليربت على ظهره محاولاً تهدئته وهو يقول:

- حاول أن تسيطر على انفعالاتك ودعنا نسوي الأمر بالطريقة المتفق عليها.

بقي الرجل يحدق في وجهي وقد بدا وكأنه يبذل جهداً كبيراً للاستجابة والسيطرة على انفعالاته كما قال له زميله، وما لبث أن استجاب لكلمات صاحبه وبدأت ملامح الاحتقان تتراجع عن وجهه تدريجيًا، بينما عاد الشاب الآخر ليحادثني دون أن يتخلى عن نبرته الأكثر هدوءاً، وإن لم تخلُ من قوة وصلابة، قائلاً:

- ما تقولينه عن اتفاقيات جنيف لا يلزمنا بشيء كرجال مقاومة، من واجبهم الدفاع عن بلادهم، فنحن لسنا جيشًا نظاميًا يخضع للاتفاقيات الدولية والأعراف العسكرية التي تتحدثين عنها، والتي كان من الأولى أن تذكّري بها زملاءك وقادتك في الجيش الأمريكي والذين لا يراعون شيئًا من تلك الاتفاقيات والمبادئ التي تتحدثين عنها، وإذا كان مُقدَّراً لك أن تغادري هذا المكان حية فعليكِ حينما تعودين إليهم أن تسألیهم عما فعلوه بأسرانا.

وفجأة رأيته ينتزع خنجراً ذا نصـــل حاد من جرابه وهو يزداد اقترابـًا مني.

* * * *

الفصل الثالث

كان قابضـًا على خنجره وعيناه تلمعان بطريقة أخافتني، وقد توقعـت للحظـة أن أتلقى منـه طعنـة قـاتلـة، لكنني فوجئـت بـه يســتخدمه لتمزيق قيدي وتحرير قدميَّ ومعصــمي، وقال بلهجة صارمة:

- هيا انهضي.

أطعته وأنا أحاول تحريك ذراعيَّ وســاقيَّ بعد أن تيبســوا؛ لكثرة جلوســي على الأرض تلك الفترة الطويلة، وقد شــد وثاقي على هذا النحو، وما لبث أن سألني قائلاً:

- هل أنتِ قادرة الآن على الحركة؟

- أجل، أشكرك.

فوجئ أنني أقولها باللغة العربية، فنظر إليَّ بدهشة قائلاً:

- تتحدثين العربية!

قلت وأنا أحاول رسم الابتسامة على شفتيَّ:

- لقد حصلت على ثلاث دورات تدريبية للتحدث باللغة العربية ودراسة قواعدها قبل أن آتى إلى العراق، وأعتقد أنني أتكلمها بقدر لا بأس به.

ظل يحدق فيَّ لبرهة وهو يتفحصني بنظراته دون أن يعقب بشيء، ثم التفت إلى زميله قائلاً:

- خذها إلى دار الشيخ خليفة.

لكنه قال له معترضًا:

- لكن دار الشيخ خليفة....

قاطعه بحزم قائلاً:

- افعل ما قلته لك.

كان من الواضح أنه القائد الذي يتولى زمام الأمور في هذا المكان، بعكس زميله الذي كان يتسم بالحدة والتوتر، والذي عاد ليقول:

- ألا يتعين علينا أن نستشير الشيخ خليفة أولاً؟

- أنا واثق أنه لن يعترض.

- لكن وجودها في داره يعرّضه وعائلته ويعرّضنا أيضاً إلى الخطر، وجودها هنا في صالحنا جميعاً.

قال له بحزم:

- يا أخي إنها امرأة، وهذا القبو لا يصلح إلا للحيوانات.

رد عليه متهكماً:

- يا جاسم حفظك الله، لو ذهبت إلى أحد معتقلاتهم -لا قدر الله- سترى أنك ستُعامل معاملة أسوأ من معاملة الحيوانات.

أومأ برأسه قائلاً:

- أعرف ذلك، وهل تريدنا أن نكون مثلهم؟

- ولِم لا؟ العين بالعين.

- لن نتعلم منهم ساديتهم ووحشيتهم، نفذ ما قلته يا رشيد، فلا وقت لدينا للمجادلة.

لم أستطع أن أمنع نفسي من النظر إليه بإعجاب رغم صعوبة الموقف، وكونه أحد هؤلاء الذين اختطفوني ولا أعلم مصيري على أيديهم، لكني أحسست في هذا الشاب ما يشبه نبل الفرسان، وأنه ليس على الصورة التي رسمتها في ذهني عن أولئك الأشخاص الذين يصفونهم بالإرهاب.

انتقلت إلى منزل الشيخ خليفة بعد أن وضعوا عصابة سوداء على عينيَّ، وبعد مسيرة نصف ساعة تقريباً بالسيارة انتزع أحدهم العصابة السوداء، لأجد نفسي داخل حجرة صغيرة تحتوي على فراش متواضع ومقعداً خشبياً وبساط صغير متهالك، يغطي جزءاً من أرضية الحجرة.

لكن رغم تواضع المكان فقد بدا نظيفاً وأفضل كثيراً بالطبع من ذلك القبو الذي احتجزوني فيه من قبل، كما أن النافذة الوحيدة بالحجرة ذات القضبان المعدنية الضيقة والتي تطل على فناء حجري كانت تنبعث منها رائحة النعناع الذكية، حيث تبيَّن لي فيما بعد وجود شتلات النعناع الأخضر على مقربة من النافذة.

كنت لا أزال متعبة ومرتعبة لوجودي بين أيدي هؤلاء الأشخاص المجهولين والمصير الغامض الذي ينتظرني على

أيديهم، لكن شـعوري بالإرهاق كان أقوى من مخاوفي، لذا لم أتردد طويلاً في إلقاء نفسـي على الفراش وأنا أحاول التغلب على مخاوفي، وقد بدا لي هذا الفراش وقتها أكثر دفئًا ونعومة من فراشـي الوثير الذي اعتدت عليه في منزلي، ومن تلك المراتب الإسفنجية التي نمت عليها في القاعدة العسكرية، فبعد الجلوس لفترة طويلة على أرضية صلبة وأنا موثقة اليدين والقدمين في ذلك القبو المعتم، كان لا بد وأن أجد هذا الفراش رغم تواضعه نعمة كبيرة من الخالق، لكن النوم الذي كنت أنشده والذي كنت في أمَسّ الحاجة إليه لم يأتِ على النحو الذي تمنيته، ولم يكن ذلك بسبب مخاوفي مما ينتظرني فحسب، بل بسبب تفكيري في ذلك الشاب الأسمر الوسيم أيضًا، كان من الغريب أن أفكر فيه وأستعيد صورته في مخيلتي في تلك الظروف التي أمر بها، ولا أدري ما الذي جعلني أنجذب إليه على هذا النحو، وأظل أستعيد كلماته وصوته الرخيم في مخيلتي! وقد أدهشني أنه بالرغم من كونه يتمتع بشخصية قيادية وكما يبدو كان الشخص البارز في تلك الجماعة التي اختطفتني، إلا أنني لم أشعر بشيء من الخوف تجاهه قدر شعوري بالانجذاب نحوه.

وجدتني أعتدل لأجلس في فراشي وقد انتابني إحساس بالضيق لهذا الشعور المبهم، فكيف أسمح لنفسي بالإعجاب بشخص يُفترض أنه عدوي، ويُحتمل أن أقضي نحبي على يديه هو وجماعته؟! كيف لي أن أنجذب لإرهابي وقد تعلمت أن أكره أمثاله وأن أراه على شاكلة هؤلاء الذين قادوا هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وتسببوا في قتل الآلاف من المواطنين الأمريكيين؟! ثم ما الذي يدعوني للإعجاب بشخص مثله؟ هل لكونه أبدى نحوي قدراً من الاحترام، أم هي جاذبيته الرجولية؟ لكنه ما زال في النهاية أحد هؤلاء الذين تسببوا في قتل زملائي واختطافي، إنه ينتمي إلى إحدى تلك المجموعات الهمجية المسلحة التي اعتادت سفك الدماء وترويع الآمنين، ولا بد أن يكون مثلهم ذا قلب قاسٍ ودموي.

حاولت إقناع نفسي بذلك، وأن أطرد خاطر الإعجاب من قلبي وتفكيري، لكن كل محاولاتي في إبعاد تفكيري حول جاسم باءت بالفشل، ولم تفلح في منعي من التغلب على ذلك الإحساس الذي انتابني تجاهه، وبالرغم من المحنة التي أواجهها والخطر الذي يتربص بي والمصير المجهول الذي ينتظرني، وجدته يتسلل

إلى تفكيري و صورته تتداخل مع كل أحاسيسي المضطربة، وبدا لي أنه من المُستغرب أن يكون أول رجل استطاع أن يجذبني إليه انجذاباً حقيقياً هو خاطفي، وأن تخامرني تلك المشاعر التي لم أعرفها من قبل طوال سنوات عمري الثلاثين في ظل ما أعيشه في تلك اللحظة!

أتراه سحر الشرق وجاذبية الرجل الشرقي بالنسبة للمرأة الغربية كما قرأنا في الروايات الكلاسيكية والأفلام القديمة؟ وابتسمت لنفسي ساخرة من أفكاري، فتلك الصورة الكلاسيكية الساذجة التي راجت في الثلاثينات عن انبهار المرأة الغربية بالرجل الشرقي لم يعد لها وجود في عصرنا الحالي، وهذا الشاب ليس فيه شيء من رودلف فالنتينو.

وعادت لتحاول النوم، لكنها ظلت تتقلب في فراشها وأفكارها قائلة لها:

- لكن هذا لا ينفي أن فيه شيء ما من فرسان العهد القديم.

كان هذا هو ما أحسسته نحوه، فقد بدا لي فارساً من الزمن القديم بمظهره ورجولته وأخلاقه.

ربما كان مجرد شعور عاطفي بأكثر مما يجب، وفيه قدر من المبالغة، خاصةً أنه لم يُظهر الكثير مما يدل على ذلك، عدا إصراره على معاملتي بشيء من الآدمية، لكن من يدري كيف سيكون تصرفه تجاهي فيما بعد؟ وربما كان هذا هو الحد الأقصى الذي استطاع أن يبرهن به اختلافه عن بقية زملائه، وما عدا ذلك فقد لا يكون مختلفًا عنهم كثيراً.

أرهقني التفكير، وإن بدا لي أنه من الأفضل لي أن أنشغل بمشاعري الحائرة تجاه هذا الشاب عن الخوف الذي يتعين عليَّ أن أستشعره في تلك اللحظات، وسرعان ما تغلب عليَّ التعب والإرهاق، لتتلاشى معه كل المخاوف والأفكار والمشاعر، ويحل محلها استسلام كامل لنوم عميق.

كنت مستغرقة في النوم، كأنني لم أنم منذ شهور، حينما تنبهت فجأة على صوته القوي وهو يقول لي:

- هيا استيقظي من نومك.

ظننت في البداية أن ما سمعته هو جزء من حلم يراودني خلال نومي، لكن تلك اللهجة الآمرة عادت لتتردد في أذني بنبرة أكثر

حزمًا، فتنبهت من نومي فزعة لأراه ماثلاً أمامي بقامته المديدة، وملامح وجهه التي لم تنجح صلابتها في تبديد شيئًا من وسامته.

كان يرمقني بنظرة ثاقبة وهو واقف أمامي على هذا النحو، نظرة تنطوي على معانٍ مختلفة، فقد لاحظت في عينيه -رغم مظهره الصارم- أنه ينظر إليَّ بشيء من الإعجاب يخالطه قدر من الشفقة، هكذا خُيّل لي.

لكن من اليقين أنني لم أرَ فيها شيئًا من الكراهية أو القسوة التي رأيتها في نظرات الآخرين تجاهي، وبدا كما لو أنه يريد أن يقول شيئًا ما، لكنه ما لبث أن تراجع عما أراد قوله، أو أنه انتبه إلى ما يبدو في عينيه من مشاعر حَرَصَ على أن يخفيها، فعاد ليضع ذلك القناع المتجهم على وجهه، قائلاً بخشونة:

- لقد نمتِ أكثر مما يجب.

قلت له بصوت مضطرب:

- كنت مرهقة ومتعبة للغاية.

واعتدلت جالسة في فراشي وأنا أستطرد قائلة:

- لكني لم أعد خائفة.

قال متهكمـًا:

- حقـًا! ومن أين واتتكِ تلك الشجاعة؟ ألا تخشين أن نقتلك؟

نظرت إليه طويلاً، وكأنني أحاول أن أغوص في أعماقه قائلة:

- هل تنوي أن تقتلني حقـًا؟

استدار ليُحضر صينية نحاسية كبيرة عليها بعض الأطعمة ووضعها أمامي، قائلاً:

- كُلِي.

وصمت برهة قبل أن يقول مردفـًا:

- لو لم يستجب قادتك لمطالبنا، فسوف تموتين حتمـًا.

قلت له مستعطفة:

- لكني لم أفعل ما أستحق الموت من أجله.

قال بشيء من الحدة:

- وكذلك الآلاف من الأطفال والشيوخ والنساء الذين قتلهم زملاؤك الأمريكيون.

نهضت لأقف في مواجهته وأنا أقول:

- لقد سمعتك من قبل وأنت تقول إنه يتعين عليكم ألا تتعلموا منا، فإذا كنت مؤمنًا بما تقوله حقًا يجب أن تعلم أنني لم أشارك في هذه الحرب، بغض النظر عمن الطيب أو الشرير فيها، أنا مدنية أعمل في المجال الإعلامي لحساب الجيش الأمريكي، لم أقتل أحداً ولم...

قاطعني بانفعال قائلاً:

- جئتِ معهم لتجمّلين صورتهم العدوانية البشعة في وسائل الإعلام الأمريكية والعالمية، لقد أتيتِ معهم بكامل إرادتك لتروّجين للعدوان واحتلال أراضينا، أليس كذلك؟

- بل جئت لأنقل صورة واقعية لِما يدور هنا لكي يراها شعبنا والعالم بأسره، أتيت لأعرفهم بحقيقة ما يدور في ميادين القتال.

قال وهو يقرّب وجهه مني وقد جحظت عيناه واحتقن وجهه:

- ميادين القتال! أتظنين أنك تتعاملين مع مجموعة من السُذَّج؟ أنتِ تعملين لحساب الجيش الأمريكي لا لحساب الحقيقة المجردة أو الإخلاص المهني، هه، ميادين القتال، بل قولي

المذابح التي يرتكبها جنود بلادك رافعين رايات الحرية والتحرر الكاذبة، أكان في نيتك أن تنقلي للعالم صورة حقيقية لِما يحدث في العراق حقًا؟

- أجل، فهذا هو عملي.

- أتظنينني أصدق ذلك؟ أنتِ تعملين لحساب القوات الأمريكية، تأتمرين بأمرهم وتنفذين ما يطلبونه منك وما يفرضونه عليكِ من تعليمات، ويلزمه بك هذا الزي العسكري الذي ترتدينه من نقل الصورة التي يريدها قادتك إلى العالم، إنهم يدفعون لك لمسخ الحقيقة وتحويل الواقع إلى مجموعة من الأكاذيب والترويج لحربهم القذرة.

ارتبكت وحاولت أن أقول شيئًا، فخرجت كلماتي متلعثمة:

- ولكن هذا لا يعني أنني...

قاطعني ثانيةً بصوت أكثر حدة، قائلاً:

- أليس هذا هو الدور الذي جئتِ لتلعبيه في بلادنا؟ جميع المحطات التليفزيونية الأمريكية وغالبية المؤسسات الصحفية الكبرى في بلادكم -والتي يُفترض أنها مستقلة وحرة- تتعامل

مع الأحداث التي تقع في بلادنا بطريقة منحازة، وتؤيد العدوان الواقع على العراق، لقد أصبحت مجرد أبواق لترويج الأكاذيب والشعارات الكاذبة التي ترددها الإدارة الأمريكية.

وجدتني أقول له بتحدٍ:

- و ماذا عنكم؟ هل يمكنكم أن تذكروا كل الحقائق المتعلقة بكم؟ إذا كنت تتحدث عن المدنيين الذين سقطوا قتلى على أيدي الجنود الأمريكيين، فهل تستطيع أن تنكر أنكم تفعلون أشياءً مشابهة؟ النظام الدكتاتوري الذي كان يحكمكم فعل أشياءً مشابهة، وآلاف الضحايا من أبناء شعبكم لقوا حتفهم في عمليات تفجيرية ومواجهات إرهابية وصراعات طائفية على أيدي جماعات مسلحة على شاكلتكم، هل تستطيع إنكار ذلك؟ ماذا عن السيارات المفخخة في الأسواق والأماكن العامة؟ وماذا عن الاعتداءات المتبادلة على المناطق الشيعية والسنية والكردية ودور العبادة؟ هل يمكنك أن تعطيني تبريراً واحداً مقبولاً لكل تلك الجرائم الدموية؟ ألا يؤدي كل ذلك إلى قتل الآلاف من الضحايا المدنيين من الأطفال والنساء والشيوخ أيضًا؟

أطلق زفرة طويلة من صدره، قائلاً:

- قبل أن تأتوا إلى بلادنا وتتدخلوا في شـئوننا لم يكن الأمر على هذا النحو الذي تصـفينه، أنتم الذين زرعتم الفتنة بين أبناء شعبنا ونشرتم الفوضى والخراب في كل بقعة من بقاع أرضنا، لا أنكر أنه توجد صـراعات طائفية عديدة في العراق، ويوجد الكثير من الجماعات الإرهابية الذين أصـبح لهم موطأ قدم في بلادنا، كما يوجد الكثير من العملاء الذين يأتمرون بأمركم، ويعملون على إشـاعة الفتنة وتأجيج الصـراعات بين أبناء الشعب العراقي، بالإضافة إلى مرتزقة في شكل شركات أمن أمريكية يتعيشـون من تجارة الموت، وهناك أيضـًا عصـابات مأجورة تعمل في الخفاء؛ لتحقيق أهداف شـيطانية، أما من تتحدثين عنهم فأنتم الذين جلبتموهم للعراق من قبل وبعد اعتدائكم على أراضينا.

إن أطفالكم يعيشـون في أمن وطمأنينة، وينعمون بأجمل مراحل عمرهم، في حين حرمتم أطفالنا حتى من طفولتهم.

تأملته قائلة:

- لقد ذكرت العديد من الجماعات التي تمارس العنف بأشكال مختلفة ووصفتها بالإرهابية، فبِما تصنف نفسك وجماعتك؟

- نحن لا ننتمي لأيٍ من هؤلاء، بل إلى المقاومة الوطنية الشريفة التي تجاهد من أجل إجلاء المحتلين عن بلادنا، وكل ما نسعى إليه هو مقاومة المحتل وتحرير العراق.

- لكن البعض يصفكم بالإرهابيين أيضًا.

- هذا ادعاء كاذب، فمقاومة المحتل لا يمكن تسميتها بالإرهاب، إنها أنبل ما يقدمه المرء من أجل الوطن وكرامته.

- و هل يد خل ضمن مفهو مك عن المقاو مة الوطنية -كما تسميها- خطف النساء وتهديدهم بالقتل؟

* * * *

الفصل الرابع

قال وقد ارتسمت تقطيبة على جبينه:

- هل سمعتِ عما يفعله جنودكم بالنساء في المعتقلات؟

- هذا لا يعني.....

- أنتِ بين أيدينا منذ أمس، فهل تعرضتِ لأي سوء أو أذى؟

هززت كتفي قائلة:

- حتى الآن لم يحدث، لكن من يدري ما الذي تدبرونه لي بعد أن أصبح مصيري بين أيديكم؟ ثم إنني مهددة بالقتل في أي لحظة.

- لقد وعدتك أنك لن تُصابي بأي أذى إذا استجاب قادتك لِما طلبناه، وأطلقوا سراح أسرانا.

- وإذا لم يستجِبوا!

غمغم قائلاً:

- يكونون هم المسئولون عن مصيرك.

وأشار إلى صينية الطعام مردفًا:

- هيا، سارعي بتناول طعامك.

قلت وأنا أقاوم إحساسي بالجوع:

- لا أريد أن أتناول شيئًا من طعامكم.

قال لي ببرود:

- كما تشائين، لكن يجب أن تعرفي أنني إذا حملت هذه الصينية من هنا فقد لا تتوافر لك وجبة طعام مماثلة بقية اليوم، فنحن نعيش في ظل ظروف صعبة للغاية، أنتم الذين فرضتموها علينا، ونكتفي بوجبة واحدة طوال اليوم.

قلت وأنا أحاول تجنب النظر إلى الطعام حتى لا تضعف إرادتي:

- هل يمكنني أن أغسل وجهي؟

- يمكنك بالطبع.

وفتح باب الحجرة منادياً على أحدهم:

- رافقها إلى الحمام كي تغتسل.

قلت له مستنكرة:

- هل تريدني أن أذهب بصحبته إلى الحمام؟!

- سينتظرك بالخارج حتى تنتهي من غسل وجهك.

- ألا توجد أيّة سيدة في هذا المنزل؟

- كلا.

- وهذا الرجل الذي تدعونه الشيخ خليفة صاحب الدار، أليس له عائلة يمكن لإحدى سيداتها مرافقتي للحمام؟

ابتسم بمرارة وهو ينظر لي قائلاً:

- كانت له عائلة كبيرة، معظم أفرادها لقوا حتفهم تحت أنقاض الجزء الخلفي من المنزل، بعد أن قصفته الطائرات الأمريكية منذ عدة أسابيع، فاضطر الرجل إلى نقل من تبقى من أسرته إلى مكان آخر بعيداً عن هنا، تاركاً لنا ما تبقى من منزله لنتخذ

منه ملجأً لنا من بين الملاجئ والمقار التي نتنقل بينها، لذا فكما ترين لا مناص من الذهاب إلى الحمام برفقة أحد زملائنا أو تقنعين بوعاء من الماء نُحضره لكِ هنا.

لم يكن الأمر مريحًا بأي حال من الأحوال وأنا داخل هذا الحمام المتهالك، وأعرف أنه على مسافة قريبة مني رجل مسلح يقف في انتظاري أمام ذلك الباب الخشبي المهترئ، وآخر يقف أسفل نافذة الحمام مباشرة.

انتهيت من غسل وجهي وعدت برفقة الحارس إلى الحجرة، لأجد صينية الطعام قد اختفت من فوق المنضدة، ووجدت جاسمًا واقفًا أمام النافذة يدخن سيجارة، ليقول لي دون أن يلتفت إليَّ:

- توجد منشفة صغيرة بجوار فراشك، لكنها نظيفة، يمكنك أن تجففي بها وجهك إن أردتِ.

تناولت المنشفة لأجفف وجهي، ثم تحولت إليه قائلة:

- أين الطعام الذي جئت لي به؟

التفت إليَّ وفي يده السيجارة قائلاً:

- أعطيته لرجالي لكي يأكلونه، فهم أولى به.

قلت وأنا أكاد أبكي مستعطفة إياه:

- لكني أتضور جوعـًا، فأنا لم آكل شيئـًا منذ أمس.

ألقى بعقب السيجارة من خلال القضبان الحديدية المنتصبة على النافذة، قائلاً بلا مبالاة:

- لقد كان الطعام أمامك، لكنك رفضتِ تناوله.

تهالكت فوق حافة الفراش قائلة بإعياء:

- وكأنك كنت تنتظر مني أن أرفضه.

تأملني لبرهة قبل أن تنفرج أساريره عن ابتسامة هُيّأَ لي أنها أفلتت منه رغمـًا عنه، بدت لي ابتسامته خلابة وقد أضفت عليه مزيداً من الجاذبية، حتى أنها أنستني إحساسي بالجوع في تلك اللحظة، لتُشعرني بانجذاب مشاعري تجاهه مجدداً، مشاعر بدت لي مبهمة في خضم أحاسيس أخرى مضطربة ومتناقضة وظروف مرعبة.

وما لبث أن اقترب مني وهو يحدجني بنظراته على نحوٍ أشعرني بالخوف، مما جعلني أتراجع فوق الفراش منكمشة على نفسي و قد ظننت أنه ينوي الاعتداء عليَّ، لكنه مد يده تحت السرير ليُخرج صينية الطعام من أسفله ويعود ليضعها أمامي قائلاً:

- في المرة القادمة لا ترفضي طعاماً يُقدَّم لك، فربما لا تجدين له بديلاً فيما بعد، هيا تناوليه سريعاً؛ لأننا سنغادر هذا المكان بعد قليل.

سألته بتوجس:

- إلى أين سنذهب؟

- ليس هذا من شأنك، ابدأي في تناول طعامك، فليس لدينا الكثير من الوقت.

لم أكن مستعدة لأجادله فقد اعتصرني الجوع، فأسرعت لأنكب على الطعام الذي وُضِع أمامي بنهم شديد، بينما ظل يراقبني للحظات مبتسماً قبل أن يتحول بنظراته إلى النافذة، ربما لكيلا يُشعرني بالحرج، وما لبث أن أحضر لي زجاجة مياه ليضعها أمامي دون أن تفارقه ابتسامته قائلاً:

- كوني طلبت منكِ أن تتعجلي في تناول طعامك لا يعني أن تبالغي على هذا النحو، فنحن لا نريد أن نراكِ مختنقة ببضع لقيمات تنحشر في قصبتك الهوائية.

تناولت عدة رشفات من زجاجة المياه قبل أن أبتسم له بدوري قائلة:

- إنها وسيلة أفضل للموت على أي حال، لا أخفي عليك أني لا آكل بهذه السرعة لتعجلك لي، بل لشدة شعوري بالجوع.

قال بشيء من التعاطف:

- معذرةً إذا كنا تركناكِ بلا طعام كل هذا الوقت، لكنكِ تعرفين أننا لا نعيش هنا في ظل ظروف طبيعية، وأعتذر أيضًا إذا كان طعامنا يبدو غير مناسب ودون المستوى الذي اعتدتِه.

- بالعكس، إنه يبدو شهيًا للغاية.

- ربما يبدو لكِ كذلك بسبب إحساسك بالجوع فقط، لكنه على أي حال أفضل ما لدينا حاليًا.

- لا داعٍ لتلك اللهجة التهكمية، فكوني أمريكية لا يجعلني مرفهة على نحو ما تظن، لقد عشت في بداية حياتي بواحد من أفقر

أحياء نيويورك، كانت لدينا ثلاجة قديمة ومعطلة معظم الوقت، وكنا نصلحها بالجهود الذاتية؛ لأننا لا نملك ثمن شراء ثلاجة جديدة، ولم نكن نتناول اللحم إلا في المناسبات الخاصة، كما كنت أضطر للعمل أثناء الدراسة في بعض المحال التجارية، لأنني لم أكن أملك مصاريف الدراسة الجامعية، ولم يكن بإمكان والديَّ مساعدتي لمواصلة دراستي.

خيّم الصمت بيننا للحظات قبل أن أعاود الحديث، قائلة:

- ولكن لِم تريدون مغادرة هذا المكان؟

- المخاطر المحيطة بنا تضطرنا إلى تبديل الأماكن وعدم البقاء في مكان واحد سوى ليوم أو يومين على الأكثر.

وفجأة اقتحم أحدهم المكان ليصيح قائلاً:

- علينا أن نتحرك سريعًا، فالأمريكيون في طريقهم إلى هنا.

ووجدتني مرة ثانية مقيدة الرسغين وعلى عينيَّ عصابة سوداء، وقد أمسك أحدهم بذراعي وهو يدفعني إلى الركض معه، وقد أخذ يصيح بي في غلظة من آن لآخر قائلاً:

- أسرعي، أسرعي.

سمعت صوت الأقدام وهي تركض حولي وأنا أحاول مجاراتهم في الركض، لكني لم أستطع مجاراتهم حتى النهاية، فتهالكت جاثية على ركبتيَّ من شدة التعب، وعاد مرافقي ليصيح وهو ينهرني، قائلاً:

- انهضي، لا وقت لدينا للراحة.

قلت له وأنا ألهث:

- أرجوك امنحني بضع ثوانٍ فقط، ألتقط فيها أنفاسي.

وتناهى إلى سمعي في تلك اللحظة صوت جاسم وهو يحدّث مرافقي قائلاً:

- الحق أنت بالآخرين، وسأتولى أمرها.

وشعرت فجأة بذراعين قويتين تحملاني من على الأرض، وقد عاد صوته ليحدثني قائلاً:

- لا تقلقي، أمامنا بضع دقائق فقط ونصل إلى المكان الذي نقصده، وستستريحين هناك.

لم أعرف أيّة أحاسيس تملكتني في هذه اللحظة وأنا محمولة بين ذراعيه وأنفاسه تلفح وجهي، لكن من المؤكد أنها كانت أحاسيس لم أعرفها من قبل، ولم أشعر بمثلها يومًا من الأيام.

كان يتعين عليَّ أن أكون مرتعبة للتفكير فيما يمكن أن يلحق بي لو وجدت نفسي مُحاصَرة في خضم معركة بين هؤلاء الأشخاص المجهولين والقوات الأمريكية، أو ربما كان يتعين عليَّ أن أتعلق بالأمل فيما إذا تمكن الجنود من إطلاق سراحي، لكن من الغريب أن الإحساس الوحيد الذي أحسسته في تلك اللحظة هو شعوري بالنشوة وأنا بين هاتين الذراعين القويتين، ورغبة جامحة أن أبقى بينهما لأطول وقت.

شعرت بحميمية قوية لا تفسير لها تجمعني بهذا الرجل الذي يُفترض أن يكون عدواً لي، ولن أخجل أن أقول إنني تمنيت في هذه اللحظة لو ضمني إلى صدره وطبع قبلة على شفتيَّ، لكن هذا الإحساس المباغت الذي تملكني للحظات سرعان ما غادر خيالي، لأرتد إلى الواقع الذي أعيشه والذي يذكرني بأنني لا زلت مختطفة على أيدي جماعة متطرفة، وأن مصيري معلق بين أيديهم، ولا أدري إذا ما كنت سأنجو وأعود إلى وطني مجدداً أم

أن الأمر سينتهي بي إلى نهاية مأساوية، وأنني سأدفع حياتي ثمنًا لطموحي الزائد الذي أتى بي إلى هذا المستنقع الدامي!

هدأت خطوات الأشخاص المحيطين بي، ووجدتني أتدلى من بين ذراعيه، لتستقر قدماي على الأرض، وقد أزاح العصابة السوداء عن عيني، قائلاً:

- لقد وصلنا، يمكنك أن تستريحي الآن.

- وهل سأبقى مقيدة الرسغين هكذا؟

نظر إليَّ وقد بدا متردداً بعض الشيء، لكنه ما لبث أن أخرج خنجره؛ ليمزق الأربطة الملتفة حول رسغي.

رأيت الأشخاص المحيطين بنا وقد اتخذ كل منهم موقعه، مشهرين أسلحتهم وملامح التوتر والترقب واضحة على وجوههم.

سألته قائلة:

- هل أنت واثق أن هذا المكان أكثر أمنًا من سابقه؟ أتظن حقًا أن تلك الأسلحة البدائية التي تستخدمونها ووسائل التخفي التي تتبعونها ستقف عائقًا أمام الوسائل التكنولوجية المتقدمة

التي يستعملها الجيش الأمريكي؟ إنهم سيجدونكم حتمًا، ومن الأفضل أن.....

لكنه أشار لي بيده لأصمت وعيناه تتطلعان إلى إحدى التلال، وقد بدا أنه لمح شيئًا ما أثار انتباهه، وأسرع بتناول نظارة مكبرة كانت تتدلى على صدره، لينظر من خلالها إلى شخص ما رآه قادمًا من خلف التلال، حيث بدا أن هذا الشخص أثار اهتمامه، حتى أنه لم يسمع ما قلته، وأشار إلى أحدهم ليتولى حراستي، في حين اصطحب معه آخر لملاقاة هذا الشخص القادم.

ويبدو أن الجميع كانوا ينتظرون مجيء ذلك الشخص الذي بدت عليه ملامح الهيبة والوقار، حيث تعلقت به أبصارهم وهو يدنو ليقترب من جاسم مُرَحبًا به، وهو يقول:

- أهلاً جاسم، مرحبًا بكم جميعًا، لكن ما الذي دفعكم إلى المجيء إلى هنا الآن؟

- الأمريكيون يطاردوننا، ويبدو أنهم تمكنوا من معرفة المكان الذي التجأنا إليه في دار الشيخ خليفة، فهل تسمح لنا بالبقاء في مزرعتك ليومين فقط، حتى تنتهي تلك الحملة الأمريكية؟

فكّر الرجل برهة قبل أن ينطق قائلاً:

- أهلاً ومرحبًا بكم بالطبع، لكني أخشى أنني لن أستطيع أن أؤمّن عليكم في المزرعة، فالعيون هنا كثيرة، وكذلك أصحاب النفوس الضعيفة، وقد يحاول أحدهم الإبلاغ عنكم.

- وما العمل يا أبا صالح؟

- انتظروا هنا حتى يحل الظلام وبعدها سأصطحبكم إلى داري في الجهة الشرقية، أنت تعرف أن لديَّ منزل فسيح هناك، وبجواره توجد الدار القديمة خلف المنزل الجديد مباشرةً، وكلاهما -الدار الجديدة والقديمة- محاطان بسياج واحد، ويمكن لداري القديمة أن تسعكم جميعًا لفترة من الوقت، ستكونون هناك في أمان أكثر.

اعترض جاسم قائلاً:

- كلا، لا يمكنني الموافقة على هذا الاقتراح، فلن أُعرّضك وأهلك إلى مثل هذه المخاطرة.

ضحك الرجل قائلاً:

- أيّة مخاطرة؟! أنت تعرف أن الأمريكيون يظنون أنني عميل لهم، ويرون فيَّ مجرد شخص ثري وجشع، لا همّ له سوى جمع المال واكتناز الثروات، فقد استطعت إقناعهم بذلك، وبأنني مستعد لتقديم خدماتي للجميع، بما في ذلك الشيطان نفسه، مقابل احتفاظي بمكانتي وثروتي، ولولا هذا ما استطعت أن أخدعهم كل هذا الوقت وأقدم يد المساعدة لرجال المقاومة العراقية الشرفاء والأبطال.

- لكن معنا هذه المرة أسيرة، هي تعمل مراسلة عسكرية للقوات الأمريكية، أسرناها في آخر عملية قمنا بها.

كانت المسافة التي تفصل بيني وبينهما بعيدة إلى حد ما، مما لم يجعلني أتبين حديثهما بشكل واضح، رغم أن لديَّ أذنين حادتي السمع، لكني رأيت الرجل ذا اللحية البيضاء وهو يلتفت لينظر لي قائلاً لـ جاسم:

- وما الذي تنوون فعله بها؟

* * * *

الفصل الخامس

- إننا نريد مساومتهم عليها؛ من أجل استعادة أسرانا لدى الأمريكيين.

لاحظت نظرات الرجل القلقة وهو يتطلع إليَّ، ثم ما لبث أن أمسك بذراع جاسم لينتحي به جانبًا، وهو يقول:

- يجب أن تعرف أن وجودها هنا قد يصبح مصدر خطر علينا جميعًا.

كان حارسي قد ابتعد عني قليلاً وهو يحاول أن يستجلي بدوره ما يقوله الرجل العجوز، فوجدتها فرصة سانحة لأتراجع عدة خطوات إلى الوراء، بعد أن تبين لي أن أحداً منهم لا يلقي بالاً لي، قبل أن أطلق ساقيَّ للرياح سعيًا للهرب، واعتمدت على

التلال المتناثرة في أرجاء المكان؛ لمحاولة الاختفاء عن أنظارهم، وقد سمعت أحدهم يصيح قائلاً:

- لقد هربت الأسيرة!

وسرعان ما انطلق الجميع لمطاردتي والبحث عني، وأنا أركض بأقصى ما لديَّ من جهد لأحاول الفرار منهم، وحينما اطمأننت لابتعادي عنهم بالقدر الكافي توقفت برهة لألتقط أنفاسي، لكن حينما عاودت الهرب من جديد فوجئت بأحدهم يبرز لي من خلف أحد التلال مشهراً سلاحه في وجهي، والتفت خلفي لأجد شخصين آخرين يقطعان عليَّ الطريق بأسلحتهما وهما ينظران إليَّ بوجوه مكفهرة، وشعرت بخيبة أمل بعد أن وجدت أنه لا مناص من الاستسلام، وسرعان ما أقبل ذلك الرجل المدعو رشيد ليرمقني بنظرة نارية، وفي يده قطعة من الحجر المدبب ليلوح بها في وجهي، حتى ظننت أنه سيضربني بها على رأسي، قائلاً بغلظة:

- أتظنين أنه بإمكانك الهرب منا بتلك السهولة؟ أنتِ تستحقين الموت لفعلتك هذه.

قلت له متحدية:

- الموت أهون لديَّ من بقائي وسط مجموعة من الهمجيين أمثالكم.

زادت حدة الرجل وهو يلوح في وجهي بقطعة الحجر المدببة، قائلاً:

- سأُريكِ إذن ماذا يفعل الهمجيون بامرأة سليطة اللسان مثلك.

انطلق صوت جاسم قائلاً بحزم:

- رشيد! تمالك أعصابك وألقِ بهذا الحجر من يدك.

استدار إليه دون أن يتخلى عن انفعاله، قائلاً:

- هل أعجبتك الأمريكية؟! إنها غلطتك منذ البداية، لولا معاملتك اللينة معها ما تبجحت بالحديث معنا على هذا النحو، إذا كانت قد أعجبتك يمكنك أن تنالها لو أردت، لكن لا تدعها تتعامل معنا كما لو كنا...

لم يمهله لمواصلة حديثه، بل اقترب منه لينتزع الحجر من يده ويلقيه أرضاً قبل أن ينهال عليه بلكمة طرحته على الأرض بدوره قائلاً:

- أنت تتصرف كهمجي بالفعل، فهذه ليست أخلاق شخص ينتمي للمقاومة الوطنية الشريفة، تهورك هذا سيعود علينا بالضرر، فنحن ما زلنا بحاجة إليها لتحرير أسرانا.

قال له معترضاً وهو ما زال مُلقى على ظهره:

- نحن لا نحتاجها في شيء، أتظنهم سيوافقون حقاً على مطالبنا ويفرجون عن زملائنا مقابل هذه الفتاة؟

ونهض وهو يفرك يديه مستطرداً:

- لقد خَبِرنا الأمريكيين جيداً، إنهم يخشون الظهور بمظهر الضعفاء، ولا يقبلون الظهور بمظهر المستسلمين لشروط أعدائهم؛ حتى لا يضر ذلك بهيبتهم ويؤدي إلى تكرار عمليات مماثلة، فلديهم عقدة الغرور والاستعلاء، وهذا سيجعلهم يرفضون عرضنا، ولو أدَّى ذلك إلى التضحية بحياة الفتاة.

حدّجه بنظراته القوية، قائلاً:

- وماذا تقترح إذن؟

- دعنا نتخلص منها ونرسل لهم جثتها، ليعرفوا أننا أيضاً لا نتراجع عما ننتويه، ونعني دائماً ما نقوله.

قال له معترضـًا:

- هذا لن يحدث.

- لماذا؟

- لأننا لا نهدف إلى القتل في حد ذاته واستعراض القوة، إننا نحارب من أجل تحرير بلادنا، وإرغام المحتل على مغادرة أراضينا، نقاتل لأننا لن نفرط في العراق وكرامة شعبه مهما كلفنا ذلك، وليعرفوا أنهم لا بد وأن يدفعوا ثمنـًا غاليـًا لاعتدائهم على وطننا وتدنيس ترابه، وأحد أهدافنا في معركتنا معهم هو استعادة أسرانا وإخراجهم من سجون المحتل، ولتحقيق ذلك لا بد أن نلجأ لكل الوسائل، ومن بينها المساومة على إعادة تلك الفتاة مقابل تحرير أسرانا، لقد قدمنا لهم عرضـًا، ومنحناهم مهلة لتنفيذ ما طلبناه، فلننتظر حتى نهاية المهلة لنرى بعدها ما إذا كانوا سيستجيبون لمطالبنا، أم يفضّلون التضحية بالفتاة.

- إنني غير مقتنع بما تقول، هذا ليس سوى مضيعة للوقت، ثم إن وجود الفتاة معنا جعلهم يُزيدون من حملاتهم علينا، مما يعرضنا جميعـًا للخطر.

تدخَّل شخص آخر من زملائه في الحديث، قائلاً لـ جاسم:

- رشيد على حق، هذه الفتاة صارت عبئًا علينا، ووجودها معنا يصعب علينا تحركاتنا، ونحن لدينا ما يكفي من الصعاب في ظل الظروف التي نمر بها حاليًا، دعنا نتخلص منها، ولنبحث عن وسيلة أخرى لتحرير رفاقنا.

لكنه قال له بحزم:

- اسمعوني جيداً، أنا ما زلت القائد هنا، وعليكم جميعًا أن تنصاعوا لأوامري، هذه الفتاة ستبقى معنا، ريثما نتلقى رداً من الأمريكيين، ولا أريد مناقشة في هذا الأمر مرة ثانية.

كان يبدو قائداً بالفطرة، رغم أنه لم يكن أكبرهم سنًا، وبدا واضحًا أنه يستطيع أن يفرض قرارته عليهم ويجبرهم على الانصياع لِما أمرهم به، وإن لم يمنع هذا أحدهم من الاقتراب منه، ليهمس في أذنه قائلاً:

- أنت تعرف أننا منذ انضمامنا إلى المقاومة العراقية واختيارنا لك كقائد لنا تعاهدنا على تنفيذ تعليماتك والانصياع لأوامرك، لكن هذا لم يحُل بيننا وبين التشاور في الأمر كما تعودنا، ونحن

سـننفذ ما أمرتنا به الآن، لكن ذلك لن يمنعني من أن أقول لك إن أسـر هذه الفتاة الأمريكية واصـطحابنا لها في تحركاتنا كان خطأً منذ البداية، أنت تعرف جيداً أنني أبغض قتل الأشـخاص العُزَّل من السلاح خاصةً إذا كانت امرأة، لكن في حالتنا تلك لا بد من قتلها في النهاية، سـواء أعادوا لنا زملاءنا أو لم يفعلوا، فقد تعرَّفتْ علينا وعرفت الكثير عنا وعن بعض الأماكن التي نلتجأ إليها والأشـخاص الذين يتعاونون معنا ويأوون لديهم، مما يعرضـهم ويعرضـنا جميعًا للخطر، خاصـةً أنت باعتبارك قائداً لنا.

أطلق جاسـم زفرة طويلة من صـدره، وهو ينظر إلى زميله قائلاً:

- أنت محق فيما تقول، لكن دعنا لا نسـبق الأحداث، فلننتظر رد الأمريكيين علينا أولاً، ثم نرى كيف نتصـرف في أمر ها فيما بعد.

سِـرت برفقتهم إلى منزل الحاج أبي صـالح وأنا معصـوبة العينين وموثقة الرسغين، على نحو ما كنت عليه من قبل.

وما إن وصلت إلى المنزل حتى رأيت أفراد أسرة أبي صالح من النساء والفتيات وهن يستقبلنني بترحيب شديد، ويتعاملن معي برقة ولطف أدهشاني، وقد تبارين في إحاطتي بعنايتهن، والمسارعة بتقديم أنواع مختلفة من الطعام والشراب لي، وكذلك بدا أطفالهن مرحين ولطفاء للغاية، حيث قام بعضهم بدفعي لمشاركتهم اللعب معهم، في حين وجدت البعض الآخر ممن هم أصغر سنًا يتسللون إلى حجرتي محاولين التودد إليَّ، كان الأمر مختلفًا هنا عن كل ما شاهدت وعرفت منذ مجيئي إلى العراق، بل عن الحياة التي عشتها في أمريكا، فالناس هنا بسطاء، لم تنتزع أهوال الحرب شيئًا من فطرتهم الطيبة التي جُبلت على الكرم والترحيب، حتى بأعدائهم!

سرعان ما نشأت بيني وبينهم ألفة ولغة إنسانية لا تعترف باختلاف الأجناس، ولا تنصاع لعدوانية النظم الحاكمة وأطماعهم السياسية.

ووجدت في ذلك الجو الأسري الحميمي شيئًا ما افتقدته في صباي، حينما حُرمت من أمي وأبي في سن مبكرة، وتعويضًا عن عاطفة لم أحظَ بها في طفولتي.

أجل، كان شيئًا مختلفًا عن تلك الحياة الفردية المستقلة التي عشتها منذ أن كنت في الرابعة عشر من عمري، وبعد زواج والدتي بعد وفاة أبي وأنا في الثالثة عشر من عمري، ومعيشتي مع عمتي التي كانت منشغلة معظم الوقت بسهراتها الممتدة حتى الساعات الأولى من الصباح في لعب الميسر مع أصدقائها، وحياة عملية لاهثة سعيًا وراء طموحاتي الصحافية.

وفيما كنت شاردة مع خواطري ومشاعري وأفكاري وجدت جاسمًا يقتحم عليَّ الحجرة فجأة، وملامحه تنطق بما يعتمل بداخله من حنق وغضب، وبدا أن هناك كلمات تريد أن تنطق بها شفتاه، لا يعرف كيف يصيغها وهو يلقي إليَّ ببطانية، قائلاً:

- البرد قارس هذه الليلة، تغطي بهذه.

وهمَّ بمغادرة المكان وهو محتفظ بملامحه المتجهمة، لكني استوقفته قائلة:

- مضت ثلاثة أيام لم أرَك فيها، هل ذهبت بعيداً عن هنا؟

التفت إليَّ قائلاً بخشونة:

- وما شأنك بذلك؟

اقتربت منه قليلاً وأنا أسأله قائلةً:

- لماذا تبدو غاضبـًا هكذا؟

علا صوته قائلاً:

- قولي لي أنتِ، لِم فعلتِ ذلك؟ لماذا حاولتِ الهرب؟

حاولت أن أبدو رابطة الجأش أمامه، وأنا أقول له:

- ألم تكن ســتفعل مثلي لو كنت مكاني؟ لقد جعلتموني رهينة لديكم، رهينة لا تعرف مصــيرها ويتهددها الموت، فما الذي تتوقعه من فتاة في مثل ظروفي إذا ما أُتيحت لها الفرصة للهرب؟

- لقد رفضــت أن تكوني معصــوبة العينين ومقيدة، حررتك من قيدك ثقةً مني فيكِ ومراعاةً لمشــاعرك، لكنكِ لم تحترمِ هذه الثقة، وجعلتِني أندم عليها.

قالت له متهكمة:

- أيّة ثقة تلك التي تتحدث عنها وأنت تضــع عليَّ طوال الوقت حار سـًا مدججـًا بالسلاح! وأيّة مشاعر ترعونها وأنتم تنتقلون بي من مكان لآخر مقيدة الرســغين ومعصــوبة العينين كحيوان

يُســاق لمذبح! عن أيّة ثقة تتحدث؟! وأيّة مشــاعر آدمية وأنا أعرف أنني موضــع مســاومة على حياتي، وأنتظر قتلي في أي لحظة؟!

صاح في وجهي قائلاً:

- إنها قوانين الحرب التي فرضــتموها علينا منذ هبوطكم على أرضــنا، إن ما فعلناه معك أكثر آدمية مما يفعله أبناء جنســك بالعراقيين، لو وقع أحدنا أسيراً بين أيديهم.

صحت في وجهه قائلةً:

- لا تتخذ من خطايا الآخرين مبرراً لخطاياكم، لا أعرف الآن إلا ما تفعلونه بي منذ وقوعي في الأســر، أنت لا تعرف شــيئًا عن شعور إنسان مجهول المصير يترقب قتله في أيّة لحظة، إنسان كهذا لن يدخر وسعًا في انتهاز أيّة فرصة تُتاح له للهرب من هذا المصير والسعي للنجاة بحياته، فأرجوك لا تلُمني على ذلك.

- كل شيء مُباح في الحرب، هكذا قال أحد مفكريكم.

قلت له ساخرة:

- كنت أظن أنكم لا تتعلمون منا.

فوجئت به ينقض عليَّ فجأةً ممسكًا بذراعي في قسوة وقد نفرت عروقه وجحظت عيناه، حتى ظننت أنه سيضربني أو يقتلني في هذه اللحظة.

لكنه استطاع بجهد غير يسير أن يسيطر على انفعاله، لتتراخى أصابعه القوية عن ذراعي قبل أن يستدير متجهًا نحو الباب في طريقه لمغادرة الحجرة، لكني سارعت باعتراض طريقه لأقول له بانفعال:

- إذا كنت تكرهني إلى هذا الحد فلِم لم تستمع لنصيحة زملائك حينما طالبوك بقتلي والتخلص مني؟

قال لي منفعلاً:

- ابتعدي عن طريقي.

لكني لم أتراجع وواصلت كلامي معه، قائلة:

- ألم يفكر أحدكم أنه من الممكن أن يكون لديَّ عائلة مثلكم، وأنهم يعيشون الآن مأساة اختطافي، وتعذبهم فكرة أن أكون قد فارقت الحياة الآن؟ أليس لك زوجة وأشقاء وشقيقات

ووالدان؟ ما هو إحساسك لو علمت أن أحدهم يتعرض لوضع مماثل لِما أنا فيه الآن؟

رمقني بنظرة قاسية قائلاً:

- لديَّ شعبي، كلهم أبنائي وأشقائي وأهلي، وقد تعرضوا لِما هو أفظع وأشد هولاً مما تعيشينه الآن، هذا على المستوى العام، أما على المستوى الخاص فأنا لم أتزوج بعد، لكن لي أسرة تتكون من أب وأم وثلاث شقيقات و شقيق واحد، هذه الأسرة فُقد نصفها في إحدى الغارات الجوية الأمريكية، وما زال لديَّ شقيقتان تُعالَجان في المستشفى من أثر الحروق والإصابات التي لحقت بهما نتيجة القصف الجوي.

- أنا آسفة.

- معظم الرفاق الذين رأيتِهم تعرضوا لمثل ما تعرضت له، منهم من فقد الزوجة أو الأبناء والكثير من الأهل والأحباء، وذاقوا طعم الألم والمرارة على أيدي زملائك الأمريكيين، لذا لا تلوميهم على كراهيتهم لأبناء جنسك، ولا لنظرة الكراهية والبغض التي ينظرون بها لكِ.

وأزاحني عن طريقه ليفتح الباب وأنا لا أدري ما الذي يتعين عليَّ أن أقوله له!

وقبل أن يغادر المكان التفت لي مردفًا:

- لقد اخترتِ أن تأتي معهم وأن تعملي في صفوف الجيش الأمريكي، أيًا كانت طبيعة عملك، جندية أو صحافية، كان هذا هو اختيارك، و كان يجب عليكِ التفكير في عواقب هذا القرار، وأن تكوني مستعدة لتحمل نتيجة اختيارك.

واندفع إلى الخارج مغلقًا الباب خلفه بعنف.

* * * *

الفصل السادس

جلست أفكر فيما قاله، وقد شعرت لأول مرة بالأسى لأجله، ووجدتني أتعاطف معه ومع رفاقه، فأنا الآن ألتمس لهم العذر فيما يحملونه من مشاعر تجاهي.

أيّة مأساة تلك! وأيّة كارثة إنسانية صنعناها في تلك البلاد! وكيف استطاع رئيس أمريكا -وهو الذي يُفترض أنه يمثل رئيس أكبر دولة عظمى وحضارية في العالم- أن يبرر تلك الحرب اللعينة؟! وهل تساوي تلك التبريرات المُصطَنعة التي يتم تسويقها للشعب الأمريكي وللعالم ارتكاب كل المآسي الإنسانية المفزعة والخراب الذي ألحقناه بالعراق وشعبه؟! لقد كان هذا البلد آمنًا ومستقراً حتى وقت قريب، رغم الضائقة الاقتصادية والحصار القوي الذي فرضناه عليه ولم يشكل تهديداً لأحد، كل العالم كان

يعرف ذلك، وأن أسلحة الدمار الشامل التي ادّعى قادتنا وجودها لديهم لم تكن سوى أكذوبة كبرى، لتبرير عدواننا عليهم، فلِم كانت هذه الحرب اللعينة؟! لإزاحة ديكتاتور مستبد مثل صدام حسين عن الحكم؟ لكننا نساند العديد من الحكام المستبدين في هذه المنطقة ومناطق مختلفة من العالم أمثاله ونُشيد بهم أحيانًا، بل ونغض الطرف عن استبدادهم، دون أن نجد غضاضة في ذلك، ولمجرد أنهم حلفاء لنا ويتبعون سياستنا وما نريده منهم.

ثم مَن أعطانا الحق في أن نشرع للعالم السياسة التي ينبغي أن يكونوا عليها، وأن نتدخل في شئونهم سواء بالسلب أو الإيجاب؟!

هل نفعل ذلك لأننا نحمل لواء الديمقراطية وحرية الشعوب كما يدّعي بوش وأعوان إدارته؟ أم هو النفط وضمان أمن إسرائيل؟

وأيّة ديمقراطية تلك التي نحاول خلقها بالدم والنار، ونريد رفع لوائها فوق جثث وأشلاء الشعوب؟! يا له من كذب ونفاق!

تملكتني حالة من الغضب والاستياء الشديد وأنا أردد لنفسي، قائلةً:

- أكاذيب، كلها أكاذيب وادعاءات، أكاذيب نُجيد صنعها والترويج لها، ويدفع الآلاف من الضحايا والأبرياء ثمنها، تمامًا كما فعل الرئيس ترومان حينما أمر بإلقاء القنبلتين النوويتين على (هيروشيما ونجازاكي)؛ ليتسبب في إبادة الآلاف من البشر ومثلهم من الجرحى والمشوَّهين، بدعوى الدفاع عن العالم الحر.

عجزت عن النوم في تلك الليلة، ضميري كان يؤرقني، والأفكار تداهمني وتسلبني القدرة على النعاس، وقد تباعد إحساسي بالخوف عن مصيري في خضم تلك المشاعر التي اجتاحتني، والغضب تجاه زملائي وأولئك الساسة الذين قادونا إلى تلك الحرب اللعينة.

كنت مغمضة العينين، لكن عقلي وأحاسيسي بقوا مستيقظين دون أن أجد للنوم سبيلاً.

وبينما أنا على هذه الحال، سمعت صرير الباب وهو يُفتَح بحرص، وصوت خطوات تقترب من فراشي، لتتوقف على مقربة مني.

كنت نائمة على أحد جانبيّ ووجهي في اتجاه الجدار المجاور لفراشي، وتسارعت دقات قلبي وسيطر عليَّ الخوف، وحينما لامست أصابع ذلك القادم المجهول ذراعي، وجدتني أستدير فزعةً، وأنا أتأهب للدفاع عن نفسي مهما كلفني ذلك، وسرعان ما تبينت أنه جاسم، فقلت له منزعجة:

- أنتَ!

وضع إصبعه فوق شفتيه مشيراً لي بالصمت، ثم ما لبث أن ألقى إليَّ ببعض الثياب المشابهة لِما يرتديه هو ورفاقه، قائلاً بصوت خافت:

- ارتدي هذه الثياب سريعًا.

اعتدلت جالسة في فراشي وأنا أقلب تلك الثياب بين يدي، قائلة بدهشة:

- لماذا؟

- لأنك ستغادرين هذا المكان معي سريعًا.

قلت له بصوت خفيض وقد ازدادت دهشتي:

- الآن!

- أجل، يجب أن نرحل في جنح الظلام قبل أن ينتبه إلينا أحد.

- ولكن لماذا؟

قال لي بعصبية:

- لِما تُكثرين من الأسـئلة؟ ألا تريدين مغادرة المكان والعودة لزملائك؟

- فقط أريد أن أعرف ما سـر هذا التحول؟ ولماذا تخاطر بفعل ذلك من أجلي؟

- أنا لا أفعله من أجل أحد، فقط أنا أرفض فكرة قتل فتاة مجردة من السـلاح، لا حول لها ولا قوة، فذلك يتعارض مع مبادئي وأخلاقي. لا أظن أن قادتك سـيبرمون ذلك الاتفاق معنا وينفذون ما طلبناه، ولا أظنهم مهتمين بالإبقاء على حياتك كما كنت أتصـور، لو بقيتِ هنا سـتموتين حتمًا، فإذا كنت أحول بين رجالي وبين التخلص منك حتى الآن، فلا أظن أنني سـأتمكن من السـيطرة عليهم فيما بعد، خاصـةً بعد أن وقع هجوم على إحدى البلدات المجاورة منذ سـاعات، قُتل فيه

جميع أهالي البلدة، رجال ونساء وأطفال، مما أثار غضب الجميع وجعلهم يستشيطون غضبًا، مطالبين بالثأر للضحايا من كل من يمت للأمريكيين بصلة، لذا يجب أن تبتعدي عن هنا بأسرع وقت، هيا أسرعي بارتداء ثيابك قبل أن يشعروا بنا.

واستدار في مواجهة النافذة ريثما أنتهي من تبديل ثيابي، وما إن انتهيت حتى تحول إليَّ قائلاً:

- اتبعيني بهدوء، وحذارِ من إحداث أي صوت.

سرت خلفه وأنا أتلفت حولي؛ خوفًا من أن يرانا أحد، وحينما وصلنا إلى البوابة الخارجية لمحت أحد زملائه يحمل سلاحه متجولاً في المكان على مسافة أمتار قليلة، فهمس لي وهو يشير إلى إحدى السيارات:

- انتظريني خلف هذه السيارة ولا تتحركي من مكانك قبل أن أشير إليكِ.

وتوجه إلى زميله الذي يتولى الحراسة ليحادثه قبل أن أراه يتحرك إلى الداخل وقد وقف يراقبه حتى أختفي عن الأنظار قبل

أن يلوح لي، فاندفعت لألحق به وهو يقوم بفتح البوابة لأسـأله قائلة:

- ماذا قلت له؟

- طلبت منه إحضار شيء لي من الداخل.

لكن قبل أن نتقدم بضـع خطوات بعيداً عن منزل أبي صـالح رأيت رشـيداً وقد برز أمامنا كما لو كانت الأرض قد انشـقت عنه فجأة، حيث ارتسـمت ابتسـامة مخيفة على شـفتيه وهو ينظر إلينا قائلاً:

- إذن تريد أن تهربها.

قال جاسم مرتبكـًا:

- -رشيد، اسمع...

قاطعه بحدة قائلاً:

- أسـمع ماذا؟ ماذا لديك لتقوله يا قائدنا الجسـور، القائد الذي أحببناه ووثقنا فيه وأسـلمنا له زمام أمرنا، إنني أرى بعيني دون

حاجة للسمع، جثث العراقيين في البلدة المجاورة لم تبرد بعد، أحببتَ الأمريكية وتريد أن تضحي بنا وبزملائنا من أجلها!

- ما هذا التخريف الذي تقوله؟! أنا أضحي بكم! أتتهمني بالخيانة؟!

- وبما تسمي إذن محاولتك لمساعدتها على الهرب؟! بمَ تسميه ورفاقنا يُنكَّل بهم في السجون الأمريكية، بمَ تسميه وأنت تعرف جيداً أن مغادرتها لهذا المكان تعرضنا للخطر وتهددنا جميعًا، نحن والأشخاص الذين يؤونا في ديارهم؟!

- وبقاؤها معنا أيضًا يعرضنا للخطر، أنت نفسك قلت هذا من قبل.

- وقلت أيضًا أنه من الأفضل قتلها والتخلص منها بعد أن عرفت الكثير عنا مما يهدد سلامتنا، لكنك سعيت لإقناعنا بأهميتها لاستعادة أسرانا وتأجيل مصيرها لِما بعد.

- هذا لا يعني قتلها.

قال الرجل متهكمًا:

- هذا هو بيت القصيد يا صديقي وهو ما قلته لك من قبل، أنت حريص على حياة الأمريكية لأنك عشقتها.

وأشهر سلاحه في وجه جاسم مردفًا:

- هذا ما لاحظته منذ البداية، معاملتك لها وطريقة تودك إليها وحرصك على حمايتها، الفتاه جميلة، لا يمكن إنكار ذلك، لكني لم أكن أظن أن إعجابك بها سيصل بك إلى حد التضحية بزملائك من أجلها.

- أتُشهر سلاحك في وجهي يا رشيد؟!

- أنا مضطر لذلك يا صديقي، فالواجب أولاً، هيا تقدما أمامي إلى الداخل، وتأكَّدا أنني لن أتردد في إطلاق الر صاص على أيٍ منكما لو حاول أحدكما الإتيان بأيّة حركة مريبة.

قال جاسم وهو يسير برفقتي أمامه:

- لم أكن أظن أنك سترفع السلاح في وجهي يومًا ما يا رشيد وتهددني بالقتل.

- لقد تعاهدنا على الإخلاص والنضال في سبيل الوطن الذي نقاتل لأجله، وأنت تعرف جيداً أنني من المستعدين للتضحية

بحياتهم في سـبيل ذلك الهدف الذي انضـممنا جميعـًا تحت لواء تلك الجماعة من أجله، وهو ما يجعلني مستعداً للتضحية بأي شيء آخر من أجل ما عاهدت رفاقنا عليه حتى بصداقتنا، خاصـةً حينما أرى أفعالك تتعارض مع أهدافنا وقضـيتنا التي وهبنا أنفسنا لها.

قال له وهو يتوقف للحظة:

- أنا واثق من أن خروجها من هنا لن يتسـبب لنا في أيّة مخاطر أكثر من تلك التي نعيشها بالفعل.
- انتهى وقت الكلام يا جاسـم، لا تتوقف عن السـير وتقدم إلى الداخل.

أطلق جاسم زفرة طويلة من صدره، قائلاً:

- كما تريد.

وألقى نظرة مدققة خلفه، ليقول على إثرها:

- هل يرضيك هذا يا أبا صالح؟

التفت رشيد ورائه تلقائيًا ليرى أبا صالح، بينما انتهز جاسم الفرصة لينقض عليه بقوة منتزعًا منه سلاحه، ليسدد له في فكه ضربة عنيفة بمؤخرة السلاح جعلته يترنح، ثم انهال عليه بلكمة قوية طرحته أرضًا، وقبل أن يتمكن من النهوض سدد له لكمة ثانية أعادته إلى الأرض قبل أن يصوب له السلاح، وقد تطلع إليه.

الرجل قائلاً:

- هل تريد أن تقتلني يا جاسم؟

حدجه جاسم بنظرة غاضبة، وهو يقول:

- أنت تعرف أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك، كما تعرف أنني لست بالشخص الذي يخون رفاقه، وكنت أظن أنك تقدرني وتثق بي أكثر من ذلك، لكن مع الأسف خاب ظني فيك.

وانتزع خزانة المدفع الآلي ليحتفظ بها معه، ملقيًا بالمدفع بعيداً، ثم أمسك بذراعي مهرولاً بي بعيداً.

كان القمر بدراً، وقد سرنا معًا قرابة الساعة بين تلال منخفضة ومرتفعة ومنازل متهدمة في طريق ملتوٍ، حتى ابتعدنا بقدر كافٍ عن منزل أبي صالح.

ورغم وعورة الطريق وصـعوبته ورهبة الليل المحيط بنا، إلا أنني كنـت متنبهـة لخطواتي جيـداً، وقـد بقيـت ملامح الطريق مرتسمة في ذهني وأنا أتتبع خطاه.

وأردت أن أقطع هذا الصمت الثقيل بيننا، فقلت له:

- هل أنت نادم لمساعدتك لي على الهرب؟

لكنه تجاهل سـؤالي مواصـلاً السـير وهو يتقدمني، دون أن يحاول حتى الالتفات لي، فعدت لأسأله:

- هل فعلت ذلك حقـًا لأنك خشيت أن يقتلوني؟

لكنه بقي على صمته مستمراً في سيره.

- يبدو أنني تسببت لك في الكثير من المتاعب، إنني آسفة لذلك، لكن...

توقف عن السير ليتحول إليَّ قائلاً بانفعال:

- لِم لا تسيرين وأنتِ صامتة؟

واصـلت السـير خلفه دون أن أنبس ببنت شـفة، لكنه عاد للتوقف وقد بدا متردداً قبل أن يلتفت لي مجدداً، ليقول:

- معذرة، لم أكن أقصد التحدث معك بتلك الخشونة.

قلت له بتعاطف:

- إنني أقدّر كمّ الضغط الذي تعانيه، وأن تصرفك النبيل معي ليس بالأمر الهين، خاصةً وأن البعض من رفاقك بدأوا يتهمونك بالخيانة، وها أنا قد رأيت بنفسي موقف رشيد تجاهك.

قال معاوداً السير:

- إنني لا ألومه، فقد خالفت الأوامر حين قررت أن أساعدك على الهرب، الأوامر التي حرصت على أن يلتزم بها جميع رجالي بمنتهى الدقة والصرامة، وفرضت عليهم ألا يؤتي أحد منهم تصرفًا فرديًا دون أن يعود للجميع وللقيادة، وإلا أُعدَّ ذلك خيانة، ونحن لدينا أحكام رادعة وقاسية للخونة، أنا فقط لم أستطع أن أتقبل أن يظن بي هذا الظن.

- أي ظن تقصد؟ اتهامه لك بالخيانة أم بحبك لي؟

حدّق بي قائلاً:

- المعنيان كانا مترادفين بالنسبة له، ألم تلحظِ ذلك؟

- هل خاطرت بمســاعدتي على الهرب حقـًا فقط خشــية من أن يقتلوني، لأنك وجدت في ذلك تعارضــًا مع مبادئك التي تؤمن بها كما قلت من قبل؟

غمغم قائلاً:

- ها أنتِ تعرفين الإجابة على سؤالك.

- وماذا أيضـًا؟

- ماذا تقصدين؟

- هل المبادئ التي تؤمن بها كانت هي الدافع الوحيد، أم أن هناك دافع آخر أيضـًا؟

- لا يوجد أي دافع آخر.

- لا أظنك صادقـًا فيما تقوله.

- أتتهمينني بالكذب؟! ثم لِم أنتِ لحوحة هكذا، ولِم تطرحين الكثير من الأسئلة؟

- لقد أردت أن أقول...

قاطعني قائلاً:

- كفاكِ ثرثرة، أسرعي في سيرك، فما زال الطريق أمامنا طويلاً.

لكني توقفت عن مواصلة السير، قائلة له:

- لن أخطو خطوة واحدة قبل أن تقدم لي إجابة شافية وصادقة عن سؤالي.

نظر إليَّ بدهشة قائلاً:

- ما معنى تصرفك الأحمق هذا؟! أتريدينهم أن يلحقوا بنا ليقتلوكِ؟

قلت وأنا أضم ذراعي إلى صدري:

- لم أعد أخشى ذلك.

نظر إليَّ وعلى شفتيه ابتسامة تهكمية، قائلاً:

- حقًا! ولِم خاطرتِ بالهرب بمفردك من قبل إذا لم يكن الأسر أو القتل يعنيكِ؟

- ما يعنيني الآن هو أن تجيبني على سؤال واحد.

- وما هو؟

- هل أحببتني حقًا كما قال زميلك؟

* * * *

الفصل السابع

نظر إليَّ مليـًا قبل أن يقول:

- أنتِ جريئة للغاية.

- اعتدنا في بلادنا أن نعبر عن مشاعرنا بصدق وصراحة.

قال وهو يشيح بنظره عني:

- أما نحن فقد اعتدنا أن نخفي حقيقة مشـــاعرنا في الكثير من الأوقات.

- لماذا؟

- لأننا نخجل أحيانـًا من التعبير عما تكنه صدورنا.

- هل تخجل من عاطفتك نحوي؟

عاد ليتأملني وقد بدا صـوته أكثر دفئـًا عما كان عليه من قبل، وهو يقول:

- على الأقل لا يمكنني التصـريح بها، أو ربما أحاول جاهداً مقاومتها.

قلت له صارخة:

- وما الذي يدعوك لذلك؟

صاح بدوره في وجهي قائلاً:

- لأنكِ عدوي، أو من المفترض أن تكوني كذلك، بنو جنسـك محتلون وقتلوا الآلاف من شعبي ومن عائلتي.

- لكني لست مثلهم، أنا لست كذلك، لقد أتيت إلى هنا من أجل هدف واحد، وهو نقل الحقائق وتسجيل المعارك.

قال لي مستخفـًا:

- وهل تنوين نقل الحقيقة عن كل ما يدور هنا حقـًا؟

- هذا عملي.

- وهل سيسمح لكِ قادتك بفعل ذلك؟ هل سيتركونك تنقلين صورة حقيقية لكل المذابح والآثام التي يرتكبها الجنود الأمريكيون وقادتهم على أرض العراق؟

- هذا ما أنوي القيام به بالفعل، أنا صحفية في المقام الأول، وأنتمي لدولة ليبرالية، فلي الحرية في نقل ما يدور هنا بصدق وأمانة.

قال لي ساخراً:

- أتخدعينني أم تخدعين نفسك؟ غالبيتكم منحازون خاصةً ضد العرب، ولديكم براعة لا نظير لها في تسويق أكاذيبكم الإعلامية رغم الليبرالية التي تتحدثين عنها، راجعي غالبية المحطات التليفزيونية والصحف التي تصدر في بلادكم لتتأكدي من ذلك بنفسك، ثم إنك لستِ صحفية بالمعنى الدقيق للكلمة، أنتِ مراسلة حربية تابعة للمؤسسة العسكرية الأمريكية، وهذا يعني أنك تخضعين للرقابة العسكرية للجيش الأمريكي، مما يعني أنه حتى لو أردتِ أن تكوني غير منحازة فلن يسمحوا لك بذلك، لن يسمحوا لكِ إلا بنقل الصورة التي يريدونها هم.

- وما علاقة كل هذا بما يحمله كلٌ منا من مشاعر تجاه الآخر؟

- أحاسيسي ومشاعري في الوقت الحالي أكبر من مجرد عاطفة قلبية بين رجل وامرأة، فهي تنطوي على مشاعر أقوى وأعمق، لدي عاطفتي تجاه وطني وشعبي، ولدي جراح ما زالت تنزف لكل ما حاق ببلادي من خراب ودمار، والأطفال والنساء الذين يُقتلون ويُشردون على أيديكم.

قلت له بتعاطف حقيقي:

- إنني أقدّر مشاعرك تلك وأحترمها، ولا أستطيع أن ألومك لو أنك تكرهني لِما يحدث ببلادك، لكن صدقني أنا ضد هذه الحرب، خاصةً الآن، وبعد كل ما عرفته ورأيته، وأراها أكثر من أي وقت مضى مأساة حقيقية، وأتمنى لو صدقتني أيضًا حينما أقول لك إنني في وسط كل تلك الظروف القاسية التي يمر بها كلانا كان من الغريب أن تنتابني تلك العاطفة نحوك، لقد شاركت في أسرى وجعلي رهينة لديكم تساومون عليها، ووجدت نفسي مهددة بالقتل على أيديكم في أيّة لحظة، كان يتعين عليَّ أن أكرهك أنا أيضًا وأخافك وأعدك عدواً لي، لكن من الغريب أن هذا لم يحدث! بالعكس وجدتني أُعجب بك

وبرومانسية لم أكتشفها في نفسي من قبل، رأيت فيك صورة مثالية لفارس من فرسان الزمن القديم، رأيتك وسط هذه الحرب اللاإنسانية وفي خضم المعارك وتلك المنازل التي تتهدم والضحايا التي تتساقط من كلا الطرفين، وبالرغم من قياد تك لجما عة يحركها الغضب والرغبة في الانتقام من المحتل تتمسك بمبادئ إنسانية عالية، وترفض التخلي عن قيم الفرسان النبلاء رغم ما يعانونه من جراح، لذا تحول إعجابي بك خلال فترة قصيرة إلى عاطفة أقوى من الإعجاب، بل أقوى مما تخيلته وظننته، فقد أحببتك، أحببتك بالرغم من كل شيء أحاط بنا، وبالظروف التي جمعتنا سويًا يا جاسم، لم تستطع هذه الحرب اللعينة وكوني رهينة لديكم أن تحول بيني وبين تلك المشاعر التي شعرتها نحوك.

قال لي متأثراً:

- أنا.. أنا أيضًا...

بدا وكأن الكلمة محتبسة في حلقه، غير قادر على النطق بها، بينما قلت له بلهفة:

- أنت ماذا؟ قلها، أريد أن أسمعها منك.

لكنه أطرق صامتًا دون أن ينطق بشيء. اقتربت منه لأضع يدي على كتفه مردفةً:

- حتى لو كنت غير قادر على مشاعرك تجاهي، فعيناك أخبرتاني بكل ما عجز لسانك عن قوله.

أجل، لقد رأيت في عينيه فيضًا من الحب في تلك اللحظة، وكشفت لي نظراته إلى أنه يبادلني نفس عاطفتي تجاهه، بالرغم من محاولته إخفائها وعجزه عن التعبير عنها.

كان الهدوء مسيطراً على المكان وباعثًا على الراحة والطمأنينة، وقد أضفى عليه ضوء القمر مظهراً شاعريًا، حيث بدا المكان بالنسبة لي وقتها وكأنه واحة للحب والسلام، بعيداً عن أحاديث الحروب وضجيج السلاح، ووجدتني ألامس أصابعه القوية لتتشابك أيدينا، وقد بدا وكأن ملاك الحب يرفرف بأجنحته على المكان، ليحتضننا مزيحًا كل ما أحاط بنا من أشكال العداء والخصومة.

أجل، مهما حاولنا الإنكار فقد عرفت سهام الحب طريقها إلى قلبينا دون أن ندري، الحب الذي لا يعترف باختلاف الأجناس واللغات وعنصرية البعض وأطماع الدول، الحب الذي يمكنه الجمع بين شخص من الغرب وآخر من الشرق، رغم اختلافهما في العادات والتقاليد، وأسلوب الحياة الذي نشآ عليه.

هذا الحب الذي جمع بين شخصين على طرفي النقيض في ظروف تحتم عليهما العداء والخصومة؛ ليجعلهما متحابين في فترة قصيرة من الزمن.

ارتجفت أصابعنا في تلامسها، وتعلقت عيناي بعينيه، لأرى فيهما كل ما أخفاه في صدره.

وما لبث أن قال لي بصوت مفعم بالدفء:

- لقد تأخرنا، دعينا نواصل طريقنا حتى أتمكن من توصيلك لأقرب مكان إلى قيادتك.

قلت له بصوت متهدج:

- هل تصدقني لو قلت لك إنني لم أعد راغبة في العودة، وأنني أفضّل البقاء معك؟

- دعكِ من هذا الهراء، عندما تعودين إليهم وتستقر الأمور بكِ ستنسين كل شيء.

- وأنت، هل ستستطيع أن تنسى؟

قال وهو يحاول تجنب النظر إليَّ:

- لا بد أن ننسى.

وصمت برهة قبل أن يستطرد قائلاً:

- ربما لو تقابلنا في ظروف مختلفة بعيداً عن تلك الأجواء التي جمعت بيننا لاختلف الأمر، لكننا تقابلنا في المكان والزمان الخطآن، الظروف التي التقينا فيها تحتم علينا أن نبتعد ونقاوم مشاعرنا، وأن يحاول كلٌ منا نسيان الآخر، ليشق طريقه الذي رسمه له القدر.

وأمسك بيدي لنواصل الطريق سويًا، لكن ما أن تقدمنا بضع خطوات حتى عاد ليتوقف قائلاً بصوت متهدج:

- سوزان...

تطلعت إليه قائلة:

- إنها المرة الأولى التي تخاطبني فيها باسمي.

استدار إليَّ لينظر في عيني مباشرة، وقد أفلتت الكلمات من صدره هذه المرة، ونطقت عيناه بما حاول أن يخفيه طويلاً، وهو يقول:

- ما دمتِ سترحلين ولن يرى أحدنا الآخر فيما بعد، فلا مناص من مصارحتك بحقيقة مشاعري تجاهك، أنا أحبك، بل يجب أن تعرفي أنك الحب الوحيد الذي عرفته في حياتي، وكما قلتِ الظروف التي جمعت بيننا حالت دون أن يصارح أحدنا الآخر بحقيقة تلك الأحاسيس التي اعترته منذ أن تقابلنا، لكنها كانت أقوى من أن نخفيها.

تهللت أساريري واختنقت عيناي بالعبرات وأنا أنظر إليه قائلة:

- أخيراً قلتها يا جاسم، أخيراً أسمعتها لي.

- لم أستطع كتمانها لأكثر من ذلك، أجل يا سوزان، أعترف أنني أحببتك، وكان من الصعب عليَّ أن أخفي حقيقة مشاعري لأكثر من ذلك.

اندفعت لألقي بنفسي بين أحضانه قائلة:

- أشعر وكأنني أسعد امرأة في العالم الآن.

قال وهو يلف ذراعه حولي متردداً:

- لكننا نعيش في عالم ظالم، عالم يفرض علينا أن نفترق في نفس اللحظة التي صارح فيها كلٌ منا الآخر بحبه له.

- صدقني لو طلبت مني البقاء معك فلن أتردد.

- بل يجب أن ترحلي، فلن أسمح لنفسي أن أعرّضك للخطر من جانب رفاقي الذين يرون فيكِ عدواً لهم بسبب انتمائك للأمريكيين، أو من جانب الأمريكيين أنفسهم الذين يمطروننا بقنابلهم وصواريخهم دون تفرقة، حياتك عندي أصبحت أغلى من أي شيء، ومن الأفضل لكلينا ألا نستسلم لعاطفتنا، وأن نفترق الآن.

وبدا وكأنه ينتزع نفسه من بين أحضاني رغماً عنه، كما لو كان يخشى أن يضعف من سطوة عاطفته عليه، بينما وجدت نفسي غير راغبة في المقاومة، بل راغبة في الاستسلام والخضوع لتلك العاطفة التي استولت عليَّ.

من الغريب أن الحب هو الشيء الوحيد الذي يُسعد المرء استسلامه له، ويبدو في نفس اللحظة التي يستسلم فيها لسلطانه وكأنه هزم كل معوقات العالم بأسره.

عاد ليتوقف عن السير لدى سماعه لصوت رنين هاتفه، فوضعه على أذنه ليستمع إلى الشخص المتصل، وسرعان ما تبدلت ملامحه فجأة، ورأيته يصرخ بانفعال قائلاً:

- ماذا؟ ماذا تقول؟! اصمدوا في مواقعكم وابذلوا كل جهدكم لمساعدة الأهالي على الهرب بعيداً، سألحق بكم على الفور.

سألته بانزعاج قائلة:

- ماذا حدث؟

قال لي واجمًا:

- لقد هاجمت دورية أمريكية منزل أبي صالح، وهم يحاصرونهم الآن من كل جانب.

قلت وقد تملكني الخوف والانزعاج:

- إن هؤلاء الناس من أفضل من عرفتهم في حياتي، ولا يستحقون أن يُلحَق بهم أي أذى.

- سأضطر لأن أتركك هنا الآن، فلا بد أن ألحق برفاقي هناك، يمكنك أن تسيري في هذا الاتجاه، وفي خلال ربع ساعة ستجدين إحدى نقاط التفتيش الأمريكية، أطلعيهم على هويتك وهم سيساعدونك على الوصول إلى الجهة التي أتيتِ منها.

تسارعت دقات قلبي وأنا أقول له بصوت مرتعش:

- لكنك قد تتعرض للقتل!

أمسك بذراعي قائلاً:

- كلنا جهزنا أكفاننا منذ أن قررنا الانخراط في المقاومة، وقد وطدت نفسي على الشهادة في أيّة لحظة منذ إمساكي بالسلاح.

قلت له منتحبة:

- لكني لا أتحمل فكرة أن أفقدك.

- وهـل تنتظرين مني أن أتخلى عن رفـاقي وأهلي في ظـل تلـك الظروف التي يعانونها؟!

- وحبنا؟ ألا يستحق أن نحيا من أجله؟

- هناك أشـــياء أخرى أكثر أهمية، تســـتحق أن نموت من أجلها، قلت لكِ إننا تقابلنا في المكان والزمان الخطآن.

* * * *

الفصل الثامن

مسح بيده على شعري وهو ينظر إليَّ نظرة حانية مستطرداً:

- كان يمكن لأشياء كثيرة في حياتنا أن تتبدل لو كُتب لنا أن نلتقي في ظروف مغايرة، لكن مع الأسف جاء حبنا كنسمة عابرة انتعش لها قلبانا قبل أن تفارقنا، تاركةً إيانا لقيظ شمس حارقة.

وعاد ليشير إلى الطريق الممتد أمامنا مردفًا:

- عليكِ أن تتحركِ الآن، ويمكنك أن تتخلصي من هذه الثياب الآن قبل أن تكشفي عن هويتك، حتى لا يخطئوا كونك أمريكية، وبعدها ستكونين في أمان.

انسابت العبرات على وجنتيَّ، فمسحتها أصابعه برفق وحنان، وهو يقول:

- أرجوكِ لا تبكِ، لا تدعي آخر شـــيء يذكّرني بكِ هو عبراتك، ولســتِ بحاجة لأن أذكّرك أنه يتعين عليكِ نسيان كل الأماكن التي ذهبنا إليها، وكل الأشـــخاص الذين عرفتِهم والتقيتِ بهم هنا.

- أتظنني سآشي بك وبرفاقك؟

- كلا، أنا أخشـــى فقط أن يأخذكِ الحماس في الدفاع عنا بعد عودتـك إليهم وبعـد أن عرفتِنـا عن قرب، فينقلبون ضـــدك ويمارســون أســاليبهم القذرة في الضــغط عليكِ للكشــف عن أســمائنا وأماكننا، قولي إنك كنتِ معصــوبة العينين معظم الوقت، أو أن الأشـــخاص الذين قاموا بأســرك كانوا ملثمين بصفة دائمة، فلم تتعرفِ على وجوههم.

- سأفعل.

- على فكرة، اسمي الحقيقي خالد وليس جاسم، جاسم و رشيد وبقية الأســماء الأخرى هي مجرد أســماء حركية نســتخدمها للتمويه.

قلت له مبتسمة:

- هل يعني ذلك أنني نلت ثقتك أخيراً؟

- وكيف لا أثق بك وقد صارحتك بحبي؟ أرجو أن تعودي لبلادك بخير وأن تخبريهم عن حقيقة العدوان الذي يُجرى علينا هنا بكل مآسيه وأهواله، كما أتمنى أن تسامحيني أنا وبقية رفاقي على ما عرّضناكِ له من متاعب وارتكبناه في حقك من أخطاء.

وهمَّ بالابتعاد، لكني أمسكت بيده قبل ذهابه قائلة بتوسل:

- أرجوك، كن حريصًا.

ربت بأصابعه على يدي وهو يحاول الاحتفاظ بتلك الابتسامة المتفائلة على شفتيه، ثم انطلق يعدو من حيث أتى، وأنا أتابعه بعينيَّ وقد تلاشت ابتسامتي المُصطَنعة، لتحتقن عيني مجدداً بالعبرات، وقد تملكني إحساس جارف بالوحشة والأسى.

وظللت جامدة في مكاني للحظات قبل أن أتخلص من الثياب التي أرتديها، لأعود إلى بزتي العسكرية وأنا أواصل طريقي بمفردي، لا يرافقني سوى إحساس ثقيل يجثم على صدري.

تعجبت من أفاعيل القدر، كان ينبغي أن أكون فرحة الآن بعد أن أفلتُّ من سجني ونجوت من مصير مظلم كان في انتظاري، لكن ها أنا حرة طليقة، ومع ذلك أشعر بالتعاسة، وكأنني أُساق إلى الموت.

ووجدتني أتوقف فجأة عن متابعة السير، وقد بدا وكأن قدميَّ لا تطاوعني على الاستمرار في رحلة العودة، وسرعان ما استدرت نحو الطريق الذي أتيت منه متخذة قراراً بالعودة إلى المكان الذي أتيت منه.

كان قراراً جنونيًا، لكن إحساسًا قويًا وجارفًا تملكني ودفعني إلى الإصرار على العودة، العودة إلى المكان الذي أُسرت فيه، وإلى الأشخاص الذين أرادوا التخلص مني.

قرار أطاح بكل المحاذير التي كان ينبغي أن تحول بيني وبين الإقدام على هذا الفعل الجنوني.

أجل، كان شيئًا جنونيًا، لكن يداً خفيةً كانت تدفعني إلى العودة إلى ذلك المكان والتعرف عما حدث ويحدث هناك، أو ربما هو قلبي الذي ساقني للعودة إلى المكان الذي هربت منه

لتوي، المكان الذي يوجد فيه الشخص الوحيد الذي أحببته، الرجل الذي رد لي حريتي، لكنه احتفظ بقلبي أسيراً لديه متعلقًا بهواه.

ورغم الطريق الموحش والمخاطر المتعددة، واصلت طريقي حتى تمكنت من الوصول إلى منزل الحاج صالح، وليتني لم أعُد، ليتني لم أطاوع قلبي، فقد هالني ما رأيته.

كان المنزل والمنطقة المحيطة به كما لو كانا قد تعرضا لزلزال مدمر أو محرقة رهيبة، كانت رائحة الموت تفوح في كل مكان، لم يرحموا أحداً، أطفال ونساء وشيوخ حتى حيوانات المنزل تحولت إلى أشلاء ممزقة وتناثرت في أرجاء المنزل القديم والجديد، تلك الدار الفسيحة التي كانت تعج بالمرح والنشاط والحركة رغم أهوال الحرب المحيطة بها، والتي لم تستطع أن تؤثر على نفوس أهلها وتفائلهم وحبهم للحياة، كل ذلك تم إبادته في لحظات قليلة.

جثوت على ركبتيَّ بجوار جثث مجموعة من الأطفال الذين طالما تسللوا إلى غرفتي لنتشارك اللعب وبجوارهم إحدى

الأمهات التي تحتضن طفلتها بعد أن لقي كلٌ منهما مصرعه، ولم أدرِ بنفسي وأنا أصرخ والعبرات تنهمر من عيني بغزارة.

هؤلاء الأشـــخاص أحاطوني بحبهم ورعايتهم رغم انتمائي لأولئك الذين قتلوهم بوحشية.

ما ذنب كل هؤلاء الأبرياء؟ وما ذنب الشـيوخ والنســاء والأطفال الرضــع ليلقوا تلك النهاية المروعة؟ أي ذنب لهم في تلك الحرب اللعينة؟ بأي ذنب قُتل هؤلاء الصــغار وحُرموا من طفولتهم وصباهم؟

تهالكت على الأرض دون أن أتوقف عن البكاء، وجســدي ينتفض بشدة لهول ما رأيت.

وبينما أنا على هذه الحال ســمعت صــوته يأتي من خلفي قائلاً:

- هل رأيتِ بعينيك ما الذي يفعله قومك بأبناء شــعبنا؟ من المؤســف أنك لا تحملين معك كاميرا لتصــورين بها هذا المشهد.

التفت إليه لأراه وهو يقترب مني مترنحًا وهو مصاب بإصابات عديدة في جسده وثيابه ملطخة بالدماء.

أراد الاقتراب أكثر متحاملاً على نفسه، لكن إصاباته أعجزته عن السير، فتهاوى على الأرض وهو يئن من شدة الألم، فاندفعت نحوه وأنا أصرخ:

- جاسم!

قال لي بصوت واهن:

- خالد، قلت لك اسمي خالد.

ضممته إلى صدري قائلة:

- خالد، حبيبي خالد.

ظللت أحتضنه وقد غمرت وجهه بعبراتي وأنا مرتاعة لكل تلك الجروح التي تركت آثارها على جسده، بينما حاول مغالبة جراحه ليقول لي:

- وصيتي لكِ أن تنقلي ما رأيتِ بعينيك إلى شعبك والعالم بأسره، فقادتك بارعون في التضليل وإخفاء الحقائق، حقائق

المذابح التي يرتكبونها في بلادنا وبلدان عديدة وجرائمهم في حق شـــعوب العالم، قولي لشـــعبك الحقيقة، دعيهم يعرفون مدى بشاعة تلك الحرب التي أقدم عليها قادتهم والمآسي التي يصـــنعونها هنا، أخبريهم عن الضـــحايا والمفقودين والبيوت المهدمة والأسَـــر المشـــردة، والخراب الذي لحق بالعراق بسببهم.

ومد لي يده المرتعشـــة بهاتفه المحمول، فتناولته منه وقد أدركت ما يريد مني أن أفعله، فقلت له وأنا أقبّله:

- سأفعل يا حبيبي، سأفعل.

قال لي بصوت ضعيف:

- أنا واثق أنكِ ستفعلين، أ...أحبك.

تراخت يده بجواره وجحظت عيناه بعد أن ردد الشـــهادة قبل أن يسلم الروح وقد تدلت رأسه فوق صدري، بينما عدت لأضمه إلى أحضاني وأنا أجهش بالبكاء، قائلة بصوت منتحب:

- وداعـًا يا خالد، وداعـًا يا حبيبي.

وما إن تمكنت من السيطرة على انفعالاتي واستعادة زمام نفسي حتى أمسكت بالهاتف؛ لأستخدم كاميرته في تصوير الضحايا، وكل مشاهد المذبحة البشعة.

عدت إلى أمريكا بعد أن قدمت استقالتي، وكان أول شيء فعلته لدى عودتي هو توجهي إلى إحدى المحطات التليفزيونية لأعرض عليهم ما قمت بتصويره عن المأساة الإنسانية التي عايشتها، وقد رحب رئيس المحطة ترحيبًا شديداً باستضافتي وعرض الفيلم، كما حدد لي موعداً بعد أربعة أيام للتحدث في المحطة والتعقيب على الفيلم، لكن قبل ذهابي إلى المحطة بعدة ساعات جاءني اتصال هاتفي بالاعتذار عن عرض المقابلة التليفزيونية المتفق عليها، وأخبروني أنه تمت مصادرة الفيلم قبل عرضه، وما لبث عملاء المباحث الفيدرالية أن هاجموا منزلي ليقوموا بتفتيشه تفتيشًا دقيقًا بحثًا عن أيّة أفلام أو مستندات أخرى بشأن المذبحة الأخيرة، ثم قادوني إلى أحد المباني التابعة لهم لاستجوابي والتحقيق معي بطريقة متعسفة، محاولين ترهيبي لمعرفة ما إذا كنت أخفي أيّة مستندات أو صور أخرى.

وظللت محتجزة لديهم ليومين تعرضت خلالهما لأشكال مختلفة من المهانة والضغط النفسي والبدني، قبل أن يطلقوا سراحي موجهين لي تحذيراً شديد اللهجة بعدم الخوض مرة أخرى في الحديث عن تلك المذبحة التي رأيتها في العراق، وحقيقة المآسي التي وقعت على يد الجنود الأمريكيين.

بدا الأمر بالنسبة لي وكأنني لم أعد أعيش في دولة يُفترض أنها تمثل قمة الليبرالية والديمقراطية وقائدة العالم الحر كما تدّعي -على الأقل بالنسبة لمواطنيها-، وأنني انتقلت لدولة أخرى دكتاتورية تحكمها قيادات مستبدة.

لكن بالرغم من كل ما فعله معي رجال المباحث الفيدرالية والترهيب الذي أحاطوني به ومحاولاتهم للتضييق عليَّ، إلا أنهم لم يفطنوا إلى أنني أخفيت نسخة من الفيلم الذي قمت بتصويره، واحتفظت به لدى صديقة مقربة لي تحسبًا لما حدث.

وبعد أسبوع أو ثمانية أيام تقريبًا سافرت إلى سويسرا، وهناك قمت بعرض الفيلم في إحدى المحطات التليفزيونية السويسرية، والتي استضافتني لأتحدث عن كل ما رأيته في العراق والتعقيب على الفيلم والتجربة التي عشتها فترة اختطافي، وما إن

عُرض الفيلم حتى أحدث ضـجة عالمية، وتهافتت العديد من المحطات التليفزيونية العالمية على عرض الحلقة التي قدمتها وبعض أجزاء الفيلم الذي قمت بتصويره، لكني لم أكتفِ بذلك، بل قمت بطبع مئات الصور من المشاهد الصادمة والأليمة للفيلم، ونزلت لأوزعها في الشوارع والطرقات على المارة، كما انضممت للجموع الصاخبة في مظاهرة ضمت مئات الآلاف من المحتجين على الحرب والمطالبين بوقف الاحتلال، وقد سرت بينهم أشاركهم الهتاف وأصيح بحماس:

- أوقفوا تلك الحرب الملعونة، غادروا العراق مُجلَّلين بالخزي والعار، كفاكم قتلاً للنساء والشيوخ والأطفال، أنهوا المأساة التي صنعتموها، فلتسقط الحرب وليحيا السلام.

- أجل يا سيادة الرئيس، هذه قصتي، و هذه هي تجربتي في العراق، الدولة التي قررتَ بجرة قلم أن تحولها إلى جحيم بعد أن كانت تنعم بالأمن والسلام.

هذه قصة الحب والحرب كما عشتها في بلد يبعد أميالاً عديدة بعيداً عن أمريكا، ومنذ عودتي من العراق وأنا أهب نفسي لنصرة ذلك الشعب بكل أطيافه، وأناضل من أجل تحرره، لم

أترك مظاهرة لمعارضة حربنا هناك إلا وشاركت فيها، لم أدع وسيلة من وسائل الرفض والاحتجاج ضد العدوان إلا ولجأت إليها، وكنت وما زلت أرى طيف خالد قريبًا مني كلما سعيت وشاركت في ذلك، كنت أراه مبتسمًا وممتنًا لي، بل بدا وكأنه يباركني ويشاركني الهتاف.

(نعم للسلام، نعم للحب، ولتسقط الحرب وليسقط العدوان، أحقنوا الدماء، وأفسحوا طريقًا للأمل والمحبة).

وكنت وما زلت واثقة أنني أنا وخالد سنلتقي يومًا ما في مكان آخر وزمن مختلف، أو ربما في اللازمن حيث يسود الحب والطمأنينة، وحيث لا يوجد مكان للحروب.

* * * *

(تمت بحمد الله)

الفهـرس

الفصل الأول ١

الفصل الثاني ١٥

الفصل الثالث ٣١

الفصل الرابع ٤٧

الفصل الخامس ٦٣

الفصل السادس ٧٩

الفصل السابع ٩٥

الفصل الثامن ١٠٩